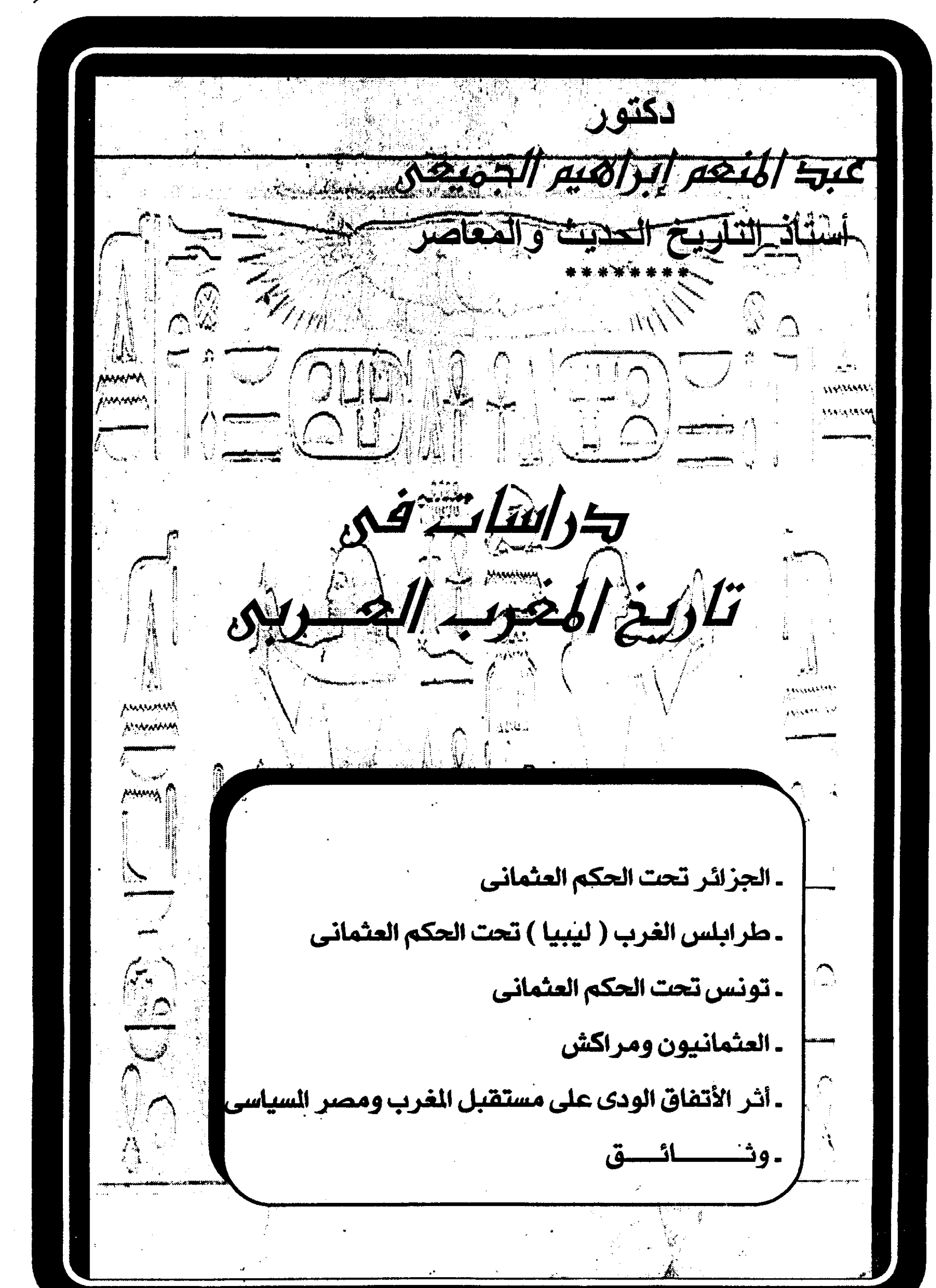
ياسمين

دكتور

عبد المنعم إبراهيم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

****



دراسات في تاريخ المغرب العربي

- الجزائر تحت الحكم العثمانى
- طرابلس الغرب (ليبيا) تحت الحكم العثمانى
- تونس تحت الحكم العثمانى
- العثمانيون ومراكش
- أثر الأتفاق الودى على مستقبل المغرب ومصر السياسى
- وثـــائـــق

مقدمـــة

لا شك أنه يهم كل مواطن عربى أن يلم بأحوال أى جزء مـــن وطنـــه الكبير ، وأن يتعرف على أحوال مواطنيه ، وظروفهم السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية ٠

وعلى الرغم من أن لبلاد المغرب العربى منزلة خاصة فـــى القلـــوب نظرا لأنهم أحفاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق ، ودور فعال فى أحداث العالم الإسلامى فإن الكتابة فى تاريخ المغرب العربى خلال الحكـــم العثمانى لا تزال جد قليلة خاصة فى المراكز العلمية بالمشرق العربى ٠ فـلا تزال الجامعات ومراكز البحث الأساسية بها لا تولى تـــاريخ هـــذه البــلاد الاهتمام الذى يستحقه رغم أهميته فى مسار السياق التاريخى للعالم العربى ٠

حقيقة أن الفتح العربى لشمال إفريقية فى القرن السابع الميـــلادى قــد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة فى تاريخها إلا أن هذه البـــلاد تعرضت للعديد من المخاطر خاصة من إسبانيا المجاورة التى كان يســـاندها فى ذلك فرسان القديس يوحنا لدرجة أن الإسبان استطاعوا الســـيطرة علـــى النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العثمانيون لإنقـــاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الاسبانى فيها ٠

قد يتساءل البعض عن أصل الأتراك العثمانيين والسبب الذى دفعهم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربى ؟

الواقع أن الروايات تختلف حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كـــان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "الغز" التى كانت تقطـــن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغـــط المغولـــى صـــوب آســـيا الصغـــرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠ وقد استجاب

السلطان "علاء الدين" لطلب هذه القبيلة بمنحها مكانا تستطيع العيش والاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليها فى حروبه . وظلت هذه القبيلة بقيادة "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين . ولما توفى "أرطغرل" تولى ابنه الأكبر عثمان مكانه وهو الذى تنسب إليه الدولة العثمانية .

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد وذاع صيته ، ثم انفتح المجال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم ، ووفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة "ينى شهر" عاصمة له ، ودعا نفسه بسلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون فى عهده الإسلام، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية . وبعد وفاة عثمان فى عام ١٣٢٦م واصل ابنه "أورخان" ومن جاء بعده السير على سياسته . واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوربا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود ، وألبانيا ، وبلغاريا، والمجر والبغدان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين ، وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك.فى مجال الحرب أو فى مجال السلم . وقد توالى على عرشها سته وثلاثون سلطانا كان منهم من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان

منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على دك أركان هذه الدولة ، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان "سليم الأول" (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية ٠

وفى عهد السلطان "سليمان القانونى" (١٥٢٠-١٥٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك ، واستطاعوا وقف هجماتهم ، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم ٠

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك ، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية : بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين ٠

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون ، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوربى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبى ٠ أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشراف

السعديين بإبعاد النفوذ العثمانى عن بلادهم ، ولقدرتهم فى المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين ٠

وقد نجحت الدولة العثمانية فى المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا ، وهى الدين الإسلامى ، واللغة والثقافة العربية والاسلامية وإبعاد الزحف الاستعمارى عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون وتبعا لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول المعنون "الجزائر تحت الحكم العثمانى" جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من الهجمة الصليبية ، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية فى ذلك الوقت وهى الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثمانى لطلبهم ، ودخول الجزائر تحت الحكم العثمانى ، والارتكاز عليهم لتحرير باقى مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان ، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثمانى فى الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة ٠

وتناول الفصل الثانى المعنون "ليبيا فى ظلال الحكم العثمانى" استنجاد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم من أخطار الهجمة الصليبية الشرشة ضد بلادهم ، وموافقة السلطان سليمان القانونى على طلبهم ، ونجاح القوات العثمانية فى طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثمانى ٠

وتناول الفصل الثالث المعنون "تونس تحت الحكم العثمانى "الصراع المرير الذى دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسه والذى كان يحكم باسمها وتحت حمايتها "الحسن الحفصى" حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثمانى لها ٠

أما الفصل الرابع المعنون "العثمانيون ومراكش" فقد تناول أسباب بقاء مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية بعيدا عن العثمانيين والإسبان أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة ٠

وأخيرا آمل أن اكون قد وفقت فى إلقاء الضوء على تاريخ المغرب العربى الحديث فى ظل الحكم العثمانى ، وأن أكون قد تمكنت من إضافة شئ جديد للمكتبة التاريخية ٠

والله ولى التوفيق ،،

أ٠د٠ عبد المنعم الجميعى

الإسكندرية – زهراء العجمى

سبتمبر ٢٠٠١

الفصل الأول

الجزائر تحت الحكم العثمانى

بعد سقوط الأندلس فى يد القوى الصليبية ، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على شمالى أفريقيا ، وطمس عروبة أهالى هذه البلاد وتنصيرهم ٠

وقد وقف أهالى هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان ، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين "عروج" وأخوه "خير الدين بربروسا" ، و"حسن باشا" و"صالح ريس" وغيرهم فقد كانوا مثلا أعلى فى البطولة والفداء فى المعارك التى خاضوها ضد التكتلات الصليبية التى أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل "عروج" ذاع اسمها بين الأهالى بعد أن حقق أمانيهم فى استرداد الموانى التى نجح الإسبان فى الاستيلاء عليها ، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته إنضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها الاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر ، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جهود مراكب الجهاد التى كانت تجاهد القوى الصليبية فى البحر المتوسط ٠

ونتيجة لاستشهاد عروج فى إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان فقد تولى شقيقه "خير الدين بربروسا" Barberoussa أى صاحب اللحية الحمراء أمور الجهاد ٠ ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه خاصة وأنه كان فى حاجة إلى العتاد والسلاح فقد استنجد بالدولة العثمانية وهى وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب فى خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته فى شرق أوربا ، ولها من أسباب القوة ، وخاصة بحريتها النامية فى شرق البحر المتوسط مامكنها من اقتحام حلبة الصراع الصليبى فى الحوض الغربى من البحر وتبديل مصائره لصالح

الإسلام والمسلمين ٠ فأرسل "خير الدين" وفدا إلى السلطان "سليم الأول" برئاسة "أبو العباس أحمد بن القاضى" الذى اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية فى الجزائر ، وعرض أبعاد القضية عليه ، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان خصوصا وأن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان فى السواحل الجزائرية ٠

وبعد أن وصل الوفد إلى استنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السيادة العثمانية ، وأرسل إلى "خير الدين" فرمانا سلطانيا منحه لقب باشا ، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبه "بكلربيك" أى أمير الأمراء وهو من أعظم ألقاب الدولة كما أرسل اليه ألفين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر ، وسمح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، يضاف إلى ذلك أنه أعطى "خير الدين" لقب قبودان وهو رتبة عسكرية تمكنه من قيادة الأساطيل العثمانية ، وتمنحه العديد من الاختصاصات العسكرية التى تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده ٠ ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية ، وتحقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم الإسبانى على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم ، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثمانى فى شتى أنحاء بلاد الغرب ، وإلى جانب ذلك فقد نودى على منابر مساجدها باسم السلطان العثمانى ، وصارت العملة تسك باسمه ٠

وقد قام "خير الدين" باستحداث بعض التنظيمات التى تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثمانى كما تمكنه من التصدى للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلى لأبنائها حيث قسمها إلى قسمين قسم شرقى يشمل المناطق

الجبلية التى تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ "أحمد بن القاضى" وقسم غربى يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان ووضع على رأسه السيد "محمد بن على" فى حين ترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة ، وكان على رأسها "خير الدين" الذى حكم البلاد حكما شوريا ، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر ، كما كون مجلسا من كبراء رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شئون البلاد ، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم ٠

وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثمانى فى الجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها باءت بالفشل كما برزت قدرة "خير الدين" فى التصدى للأسطول الإسبانى الذى واصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غنم على أثره العديد من السفن ، وأسر بعض ملاحيها ٠

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا فى شمالى أفريقيا، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإسبانى عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة فى التراخى وقنع السلطان العثمانى بمظاهر السيادة فقط طالما استطاعت تلك الولايات أن تحفظ كيانها من الضغط الأجنبى بوسائلها الخاصة ، وقنعت الدولة بالتضامن الإسلامى العام الذى كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء٠ وقد يرجع أسباب تراخى سلطة الدولة العثمانية فى الجزائر إلى بعد المسافة التى تفصل بينها وبين عاصمة الدولة ، وإلى ضعف البحرية العثمانية خاصة بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة "ليبانتو" عام ١٥٧١ ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها فى مواجهة الدول الأوربية ، كما لجأت الدول الأوربية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر

والتى كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية فى حربها ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ٠

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد "خير الدين" والعثمانيين فسعى سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد "خير الدين" والوجود العثمانى فى الجزائر ، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع "خير الدين" هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه فى غرب الجزائر ٠ أما فى شرق الجزائر فقد حاول الحفصيون إثاره المشاكل ضد "خير الدين" ولكنه تمكن من تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التى انتهت بانتصاره وتوسيع دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات الميزاب الموغلة فى الصحراء ، كما تمكن خير الدين من توجيه الضربات للسواحل الإسبانية ٠

وإلى جانب ذلك فقد اهتم "خير الدين" بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما يدفعه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغانم البحرية ، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان ٠

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان ، وتهدد مواصلاتهم كما ظلت بمثابة الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والقاعدة التى ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان٠

ونتيجة لانشغال "خير الدين" بقيادة الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط تولى نائبه "حسن أغا" إيالة الجزائر وأخذ يتصدى لقوات الإمبراطور "شارل الخامس" التى عملت على إيجاد تحالفات مع بعض الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بنى حفص ، وبنى

زيان وبعض مشايخ القبائل ، كما أخذ يتصدى للحمـــلات العســكرية التـــي أرسلها الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر .

وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائـــر فـــي مواجهـــة الإســبان وأتباعهم ففى الداخل عمل على توطيد الأمن ، وإلى إلتفاف الأهالى حولـه . كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح فى إخضاع القبائل هناك . وإلى جـــانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية ، وأثار الرعب بيـــن سكانها . ففي جمادى الأولى ٩٤٦هــ / ســـبتمبر ١٥٣٩ أقلـــع بأســطوله المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألف وثلاثمائة رجل نحو جبل طـــارق ، ونجح فى احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم ، كما توغل فى جهات الساحل الإسبانى الجنوبى وغنم العديد من المتاع والأسرى . كـل ذلك دفع الإمبراطور "شارل الخامس" إلى محاولة الاستيلاء على الجزائـــر ، وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق . فعرض على "خير الدين" حكــم شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل خاصـــة وأن "خير الدين" أبلغ السلطان العثمانى بالأمر . ونتيجة لذلك أعد "شـــارل الخامس" حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر ، وتمكنت من الاســـتيلاء علـــى مينائها والالتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف ، مما أصاب أهل البـــلاد بالهلع. وفى اعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإسبانى يطلب من "حسن أغـــا" التسليم ، ولكنه رفض ذلك ، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجـــل . ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتـــاحت شـــواطئ الجزائر ، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فســد خلالـــها مفعــول البارود الذى فى حوزة الإسبان ، كما إقتلعت الرياح خيام جنود الحملـــــة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثـــير منـــها ، وقذفـت الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون ، واستولوا على ذخائرها .

وفى وسط هذه الأهوال نجح "حسن أغا" فى مفاجأة العدو ، والالتفاف حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسبانى فى مهاجمة مدينة الجزائر خاصة وأن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن فى حسبانه • وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها ، مما أجبر المهاجمين على الانسحاب وكان له أبلغ الأثر فى ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين ، مما دفع السلطان العثمانى "سليمان القانونى" إلى منح "حسن أغا" وأعوانه العديد من الألقاب والنياشين •

وبعد وفاة "حسن أغا" فى رمضان ٩٥٢هـ/ نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم الجزائر "حسن بن خير الدين بربروسا" الذى تمكن من التصدى للتكتلات الصليبية ، ومنعها من احتلال مدن الساحل فى وهران ، والمرسى الكبير ، وبجاية• وذلك بفضل مهارته فى الأمور الحربية البرية والبحرية ، كما عمل على تنظيم إيالته إداريا وعسكريا ، فقام بالقضاء على تمرد القبائل القاطنة فى المناطق الغربية من الجزائر ، وتنظيم الجيش ، وتحقيق الانضباط فيه ومع ذلك فإن المؤامرات التى حيكت ضد "حسن باشا" لدى السلطان العثمانى أدت إلى عزله من منصبه وتولية "صالح ريس" حاكما على الجزائر فى محرم ٩٥٩هـ / يناير ١٥٥٢م • وقد عمل "صالح ريس" على تأمين إيالة الجزائر من الداخل والتصدى للحكومات المحلية المتعاونة مع الإسبان ومن أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حد لهذه الأمور ، ونتيجة لتركز فكرة الجهاد الإسلامى فى ذهن "صالح ريس" فقد قام بمحاصرة سواحل الإسبان ، وعمل على إيجاد جبهة إسلامية موحدة فى المغربين الأوسط والأقصى لمحاربتهم ، كما نجح فى إنهاء حكم الأسرة الزيانية فى تلمسان ، وضم هذه المنطقة إلى إياله الجزائر العثمانية وفى ربيع الأول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥ شن "صالح ريس" هجوما على المراكز الإسبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة "بجاية" من الإسبان ، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله فتوفى فى رجب ٩٦٤هـ/ يوليو ١٥٥٦م • وفى أعقاب ذلك شهدت إيالة

الجزائر أوضاعا مضطربة ، استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكلل بالنجاح .

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار فى الجزائر عين السلطان العثمانى "حسن بن خير الدين" بكلر بيك على الجزائر ، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان ، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل فى ذلك .

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند ، والخلافات القائمة بين البحارة والإنكشارية والثورة التى قامت فى قسطنطينية أمر السلطان العثمانى بتولية "علج[١] على حاكما على الجزائر فوصلها فى رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨ . وقد شهدت ولاية الجزائر فى عهده استقرارا واضحا ، كما شهدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الصليبيين رأى "علج على" ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربى تحت الحكم العثمانى ومن أجل ذلك إهتم بتوجيه الجهاد العثمانى لطرد الإسبان من بلاد المغرب العربى عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين فى ثورتهم

(١) كلمة عربية جمعها "علوج" بضم العين واللام للدلالة على أصل من يحملها بأنه أجنبى فقد كان البحارة الجزائريون من أجناس متعددة ، ولكن الشرط الضرورى للانخراط فى سلك البحرية الجزائرية هو اعتناق الإسلام ، وكان يطلق على أولئك الذين يغيرون دينهم ويعتنقون الإسلام – ومعظمهم من الأسرى – اسم العلوج وكان هؤلاء العلوج يحصلون على أرقى المناصب .

انظر محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، بيروت ١٩٧٩ ص ٩٣ .

ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإعادة فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية وبالنسبة لتونس فقد توجه "علج على" لفتحها وتمكن من هزيمة القوات الحفصية المؤيدة من قبل الإسبان ، ودخول المدينة فى نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالى وأخذ البيعة للسلطان العثمانى "سليم الثانى" وضرب السكة باسمه . وبالنسبة للفترة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فقد تميزت بالصراع بين قوى ثلاثة هى الباشا ممثل السلطان ، والإنكشارية، وأمراء البحر وقد ساند الإنكشارية أمراء البحر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا . وفى عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثمانى، وانتخاب الداى[١] رئيس الديوان حاكما على الجزائر مما أدى إلى تحكم قادة الجند فى الدايات ، وقد استاء الأهالى من هذه الفوضى ، وساندوا أمراء البحر الذين فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق فى عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية . ومنذ عام ١٧١١ اغتصب داى الجزائر صلاحيات الباشا العثمانى . وظل الدايات ينتخبون من بين أمراء البحر وبمرور الوقت أصبح الداى يحكم دون مشورة الديوان ، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه سوى السيادة الإسمية .

وخلال ذلك أصبحت السلطة الحقيقية فى أيدى رؤساء القوات غير النظامية ، ولم يصبح للسلطان العثمانى سوى السيادة الإسمية فقط وأصبح الحاكم الملقب بالداى هو المتقلد الرسمى لأمور الحكم ونتيجة للسلطات

---

(١) الداى كلمة تركية تعنى (خال) ولكنها فيما يبدو لم تستخدم للدلالة على عمل وظيفى إلا فى الجزائر وتونس ، وكانت فى بادىء الأمر لقبا شرفيا ثم تحول لوظيفة عسكرية فى الجيش الإنكشارى .

الواسعة التى أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستقلة فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان العثمانى ولم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شئ إلى الآستانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر وخلال القرن الثامن عشر شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوربية للشواطئ الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة ، وقراصنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن . وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم .

ونتيجة لضغوط قباطنه البحر الجزائريين على السفن الأوربية التى تمر بشواطئ بلادهم وفرضهم الأتاوات المستمرة عليهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسبانيا حملة فى عام ١٧٧٥ للاستيلاء على ثغر الجزائر التى كانت تعده مكمن الخطر على سفنها فى البحر المتوسط ، ولكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء على الثغر الجزائرى رغم النيران الحامية التى صبتها عليه . ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حاول الإسبان تكوين حلف أوربى ضد الجزائر ، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوربية تتنافس فيما بينها لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيازات سياسية وتجارية معهم وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتحدة إقامة تحالف أمريكى أوربى ضد الجزائر ، ولكنها فشلت مما أدى إلى رغبتها فى شراء السلام بالمال .

ولنا هنا أن نتساءل هل الجهاد البحرى الإسلامى ، وفرض الأتاوات على السفن الأوربية التى تخالف المسلمين فى عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة.

الواقع أن تاريخ الجزائر الحضارى تعرض لكثير من التشويه فالمؤرخون الأوربيون يصرون على اعتبار البحارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية على بلادهم أمثال "عروج" وأخيه "خير الدين

بربروس" و"صالح ريس" على أنهم قراصنة مع أن هؤلاء كان مثلا أعلى في البطولة والفدائية فقد جسد "عروج" و"خير الدين" في نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال في المعارك التي خاضوها دفاعا عن إسلام وعروبة شمالي أفريقيا ، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمي هذه البلاد لمواجهة أعداء الإسلام ومن المؤسف حقا أن نرى بعض المؤرخين والباحثين المسلمين قد سايروا المؤرخين الأوربيين في هذا الرأي الخاطئ ، ووصفوا عمليات الجهاد الديني البحري التي قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليها عملية الجهاد البحري الإسلامي ، فليس من المنطقي أن تعتبر الرجال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا والعمل على حماية الممتلكات والأرواح الإسلامية بأنهم قطاع طرق وقراصنة ولاهم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية ، وعرقلة قيام علاقات سلمية بين الشعوب ومن الغريب حقا أن نجد أفكارا خاطئة حول هذه الموضوع لا تزال رائجة يرددها متخصصون أكاديميون ٠ الواقع أن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن البحرية الصليبية كان جهادا بحريا إسلاميا خاصة وأنه كانت هناك حروب مستمره مع هذه الدول ٠

وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامي في محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو في البحر ٠ لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا كان جهادا بحريا إسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين في إسبانيا وفي شواطئ بلاد المغرب ٠ كما أن ما قاموا به يمكن إعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية ، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن القرصنة – إذا صح ذلك التعبير – لم تكن مقصوره على مسلمي شمال أفريقيا ، ولكنها كانت سلاحا استخدمه المسلمون وغير

المسلمين ، فكما كانت السفن الإسلامية تعتدى على سفن الدول الأوربية ، فإنها كانت سلاحا استخدمه الأوربيون ضد بعضهم البعض وضد المسلمين أيضا فقد استخدمه الإنجليز ضد سفن خصومهم الإسبان ، وباركته الحكومة الإنجليزية ، كما شهره البرتغاليون ضد السفن الإسلامية بعد موقعة ديو البحرية • وعلى أى حال فقد استطاع قباطنة البحر المسلمون الدفاع عن الشمال الإفريقى ضد العدوان الإسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن ينضموا تحت لواء الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد الإسلامى فى منطقة المغرب العربى من جهاد فردى ، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما تستطيع به ردع أى عدوان صليبى ضد أى دولة إسلامية • وظلت الروح الصليبية تؤثر فى العلاقات بين ولايات المغرب العربى والدول الأوربية ، حتى بدأت المشروعات التى وضعت للتدخل فى شئون هذه الولايات تبدو للعيان ، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر فى عهد إمبراطورية نابليون راودت بونابرت فى عام ١٨٠٨م فكرة الاستيلاء على الجزائر فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على الجزائر وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على الجزائر ، وأشار إلى الأماكن التى تصلح لإ نزال الجنود الفرنسيين ، والطرق والآبار التى يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة •

وعلى الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون على الاستيلاء على الجزائر فإن الظروف الدولية فى ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التى بدأت تثبت فى أذهان ساسة فرنسا الذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لذلك •

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان الدولة العثمانية لأسطولها فى معركة "نوارين البحرية" ١٨٢٧م ، فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين

خاصة وأنها كانت ترغب فى الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها ، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها .

وقد استغلت فرنسا فرصة المشادة الكلامية التى حدثت بين داى الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها فى دفع المستحقات التى عليها للجزائر نظير الحبوب التى استوردتها منها ، فأرسلت فى يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية ، ووجهت إنذارا إلى الداى كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة ، وتقديم كافة الضمانات التى تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأى إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية ، وأن تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية ، وأن يعلن الداى أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر فى حالة رفضها لشروط الإنذار . ومع ذلك فقد رفض الداى الإنذار الفرنسى ، وأصر على التمسك بموقفه ، وأخذ يتهكم على المطالب الفرنسية بقوله "لم يبق إلا أن يطلبوا إمرأتى" .

ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر أصبحت شبه مؤكدة أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر . ولما كانت الدولة العثمانية منشغلة فى مشاكلها فى جزيرة المورة ، ولا تنوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطأت فى حسم الموقف بالطريقة المناسبة مما أعطى لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا فى البحث عن حلول أخرى تجنبها نفقات الحرب ، وفى نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا فاقترح دورفتى Drovetti " قنصل فرنسا فى الإسكندرية قيام

محمد على والى مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتـــأديب الـــداى والقضاء على حكومته ، واحتلال الجزائر وضمها إلى أملاكه على أن يكون لحليفته فرنسا إمتيازات واسعة فى هذه البلاد .

ولما فوتح محمد على فى الأمر تردد فى البداية خشية فقدان ثقة العـــالم الإسلامى فيه وقال للقنصل الفرنسى "أنتم مسيحون أما نحـــن والجزائريـــون فمسلمون، وسماع أقوال كتلك ونحن ذوو دين ، وأمة وشريعة ودولة واحدة ، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا" ولكن سرعان ما عدل محمد على عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحملة لتأديب الداى بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليـــا ، ودعما بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطوله الذى تحطم فى موقعـــة نفـــارين البحرية عام ١٨٢٧م .

وفى محاولة من محمد على لتكشف الموقف أرسل إلى الداى برســـالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيمة اذا أصر على موقفـــه المعـــادى لفرنسا ، وكان رد الداى عليه فليذهب محمد على ليأكل الفول .

وحتى يأخذ مشروع محمد على بالحملة على الجزائر شكلا رســـميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة الســـلطان العثمانى على المشروع وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعترضوا عليـــه وحرضوا السلطان العثمانى ضده ، كما حذرت بريطانيا محمد على الذى بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل وإلى جانب ذلـــك فقـــد ثارت الدول الأوربية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية إمتـــداد نفوذ محمد على إلى شمالى أفريقيا وإزاء هذه العقبات أغمضت فرنسا أعينها عن هذا المشروع ، وظلت تتحين الفرص المواتية للقيـــام بنفســـها بحملـــة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها وقد جاء الوقـــت المناســـب لذلـــك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النيابى الذى حدث فيها خلال ذلك الوقـــت وانشغلت الروسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التى اندلعت فى إيطاليا وبولنـــدة

فى تلك الفترة فتذرعت فرنسا أمام الرأى العام الأوربى أنها تدافع عن قضية أوربية تدعم من خلالها قواعد العدل وأصدر ملكها قرارا فى ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فابحر الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسى المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل ، ٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر ، وبدأ بإنزال فى سيدى فرج على بعد ٢٥ كيلو مترا غربى مدينة الجزائر ونتيجة لذلك عهد الداى إلى صهره إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة. وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية ، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانى ساحلية بينما أصبح داخل البلاد فى أيدى الزعماء ورؤساء القبائل .

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل فى الداخل ، فنجح الفرنسيون فى احتلال سيدى فرج والوصول إلى مدينة الجزائر ، ومهاجمة قلعة السلطان ، وحصن القصبة ، وإشعال النار فى مخازن الذخيرة ولما رأى الداى تحول الموقف فى غير صالحه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين ، ووسط فى ذلك قنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة وأصروا على فرض شروطهم والتى كان من أهمها ما يلى :

١-تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين .

٢- ضمان القائد الفرنسى حماية الداى ، وممتلكاته الشخصية .

٣- ترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريده ٠

٤- عدم اتخاذ أى إجراءات إنتقامية ضد الجنود الجزائريين ٠

٥- كفالة حرية الجزائريين فى إقامة شعائرهم ، وصيانة ممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم ، والمحافظة على أعراضهم ٠

وقد وافق الداى على هذه الشروط التى تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو وأسرته إلى نابلى بإيطاليا ، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقعت أعباء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه ، وبدأ الاستعمار الفرنسى الرسمى فى الجزائر ، وقد حاولت الدولة العثمانية استرداد الجزائر بالطرق بالدبلوماسية ، وبذلت مساع عديدة لدى إنجلترا والنمسا من أجل استرجاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشغولتين بالأوضاع الأوربية فى ذلك الوقت ٠

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها ، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى ، وعدم معرفة داى الجزائر بعواقب الأمور ، وبقدرات فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوربية والتطور الصناعى فى أوربا ٠ هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعيتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى :

١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة ، وبتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير

الدين اعتبرت ولاية ممتازة ، وقاعدة لتوسيع الحكم العثمانى فى كافة بلـــدان المغرب العربى .

وقد شهدت الجزائر عدة تغيرات خلال الحكم العثمـــانى لـــها يمكـــن تقسيمها إلى أربع فترات وهى :

١- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهى فترة حكم البيكلر بكـــوات وفيها كان الوالى بمثابة ممثل السلطان أو نائبه ، وكانت الجزائر تعد أقـــوى نيابات المغرب وكان البكلريك يعين من قبل السلطان ، وهو بدوره يشـــرف على الباشوات الحاكمين فى إقليمى طرابلس وتونس .

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكلريك أصبحت الجزائر ولاية عاديـــة . وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعينهم حكومة الباب العالى .

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨-١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعليـــة على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات .

٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالســلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولى رجال البحر زمام الأمور وتـــم توليـــة أحدهم تحت لقب "داى" .

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداى موجـــودا وإن أصبح دايات الجزائر يحملون لقب "الباشا" وإلى جانب ذلك فقد عـــاون حكام الجزائر فى إدارة شئون البلاد مجلس استشارى ، هذا بالإضافـــة إلـــى الديوان الذى كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية . وقـــد تركزت مهمة الديوان فى مساندة الحاكم فى إدارة البلاد .

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليـــس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم الســـلطان إلـــى

"خير الدين" أثناء فتح الجزائر والمتطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذى لم يقتصر دورهم فى الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن ، بل أخذ معظمهم يتدخل فى إدارة شئون البلاد وفى حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا وكان مقتل تركى واحد دافعا لحدوث مجزرة بين الأهالى إذا لم يقبض على القاتل .

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند فى الجزائر فقد بدأوا يتزوجون من الأهالى الذين كانوا يرحبون بذلك رغبة فى الحماية الفعالة منهم ، كما عمل بعضهم بالتجارة وربحوا ثروات طائلة .

ومن الفرق العسكرية الشهيرة فى الجزائر القولوغلى وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالى . وقد استخدم بعضهم فى الوظائف المساعدة ، وفى أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالى نظرا لمعرفتهم اللغة التركية ، وقد تميز هؤلاء يتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثمانى فى الجزائر ولعبوا دورا بارزا فى خلق النيابات العثمانية فى شمال أفريقيا كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوربية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى . وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربى من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدى فى ذلك الوقت وقد نجح هؤلاء فى مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم فى قيادة السفن ، وانضباطهم ومعرفتهم لشواطئ بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة فى الجزائر خاصة وأن المغانم التى كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد .

وحول النظام الضريبى فى الجزائر وغيرها من الولايات الغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية ، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة . ففى كل عام تخرج مفرزة

عسكرية تبدأ عملها ما بين شهرى مايو وأكتوبر وتتجول فى القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقرة عليها ، وكانت عملية انتقال هذه المفروزة من منطقة إلى أخرى ، وعملية إطعام مابها من جنود وموظفين يتحملها الأهالى • وليس معنى ذلك أن كل القبائل كانت تسدد ما عليها من ضرائب كانت هناك قبائل لا تدفع الضرائب نظرا لصعوبة فرض سلطة الحكومة عليها •

وكانت الضرائب على نوعين : ضرائب شرعية مثل الزكاة والعشور على المحاصيل وتحدد بحسب الأفدنة المزروعة وضرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهى بمثابة هدايا إجبارية تقدم فى المناسبات كالأعياد ، وهناك ضريبة "اللزمة" وكانت تؤخذ لتموين الجند فى الأرياف ، وهناك ضرائب المكوس على الأسواق • وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعون ضرائب على المهن التى يعملون بها

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية • فقد كان نظام الالتزام بؤرة لكثير من المفاسد والعيوب والنهب والتى تقع جميعها على عاتق الأهالى حيث كان الفلاح يدفع مثلى أو ثلاثة أمثال الضريبة المقررة عليه • وكان الامتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا •

وإلى جانب ذلك فقد كانت خزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقد كان لها حصة من الأتاوات التى يفرضها البحارة على الدول الأوربية مقابل حرية مرور سفنهم ، كما كانت الهدايا التى يقدمها القناصل للدايات أشبه بجزية سنوية •

وفى محاولة لضبط الأمور عملت الحكومة العثمانية على الاستعانة ببعض القوى المحلية لفرض سيطرتها على الولاية ، فاختاروا بعض القبائل وسموها بالمخزن ، وكلفوها بالمساعدة فى القيام بأعمال الشرطة وتأديب

القبائل العاصية التى ترفض دفع الضرائب وذلك فى نظير بعض الامتيازات التى تمنحها لها .

كما أنشأت الحكومة ما يسمى "بالسمول" (جمع سمالا) وهى جماعات صغيرة من الأهالى منحتها بعض الأراضى للإقامة فيها نظير قيامها بحماية الجنود والمسافرين ، والمحافظة على الأمن فى المناطق المحيطة بها والمحافظة على بعض النقاط الهامة .

وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهى :

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السلطان ، وتشمل مدينة الجزائر وضواحيها وترتبط بالداى مباشرة .
- ولاية الجنوب وكان يحكمها باى وعاصمتها الميدية وكانت أصغر الولايات .
- ولاية الغرب وكان يحكمها باى وعاصمتها مازونه ثم نقلت بعد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران .
- ولاية الشرق وكان يحكمها باى وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس .

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ ١٥٨٧م وبعدها أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاة يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات ، ثم تغير ذلك النظام فى عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩ بما أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدايات فى عام ١٦٧١م الذى استمر حتى وقعت الجزائر فى قبضة الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ م .

وبالنسة للنظام القضائى فقد كان جزءا من التنظيم القضائى للدولة العثمانية الذى يبدأ بشيخ الإسلام ، واثنين من قضاة العسكر . وقد عين قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة العثمانية ،

والآخر للمذهب المالكى الذى كان يسير عليه معظم سكان شمال أفريقيا . كما وجد المجلس الشرعى الأعلى الذى يتألف من قاضيين ومفتيين على المذهبين المذكورين . وأحد المشايخ للنظر فى شئون الأوقاف وممثل للحكومة ، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد فى مراجعة أحكام القضاء ، والنظر فى المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا .

٢- أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثمانى

وبالنسبة للنواحى الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس فى ذلك فلم تتدخل فى تحسين وسائل الزراعة البدائية أو فى العمل على الوقاية من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجارى المائية بل تركت الأمور على حالها ، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع نسبة الضرائب على الفلاحين أكبر الأثر فى عدم استغلال الأراضى الصالحه للزراعة ويقال نفس الشئ عن التجارة . حقيقة كان هناك ازدهار محدود فى هذا القطاع الذى تمثلت أنشطته فى المبادلات التجارية المحلية بالأسواق ، وفى التبادل التجارى مع المدن الحدودية فى تونس والمغرب ، ولكن التبادل التجارى الخارجى كان مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوربية فى وجه حركة التجارة الجزائرية بالمرصاد ، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء الموانى الصالحة للتجارة ، وبالنسبة للنظام النقدى فى الجزائر فقد أصدرت الجزائر سكتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء . فقد سك فى الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية مثل القنطار والأقة ، والأوقية ، والدرهم ، والمثقال الذهبى والذراع القياسى وغيره .

وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج ، ودباغة الجلود ، وصناعة السجاد ، وصناعة الأحذية ، وصياغة الذهب ، والصناعات الخزفية ·

٣- الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى :

أما عن الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى فقد طبعت بالطابع الإسلامى فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامى فكان التعليم منتشرا فى أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التى كانت تمول من الأوقاف التى يهبها أهل الخير والصلاح إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى "الشريعة" وهى الخيمة التى تنصب فى القرية لتعليم أطفالها ، وكان هناك أيضا الكتاب أو ما يسمى الـ (مسيد) وهى تحريف لكلمة مسجد وكان يفد عليه الأطفال من ذكور وأناث وتركز التعليم على القرآن الكريم ، والحديث والعلوم العربية والإسلامية · وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمى ، وعدم القدرة على الابداع حيث انحصر الجهد العلمى فى الحفظ ، وكتابة الشروحات والحواشى والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع ، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها ·

ومما سبق يتضح أن الوجود العثمانى فى الجزائر لم يكن فى يوم من الأيام وجودا إستعماريا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استنجاد الجزائر بالعثمانيين فى بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم · كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التى تجسدت فى عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة الصليبية على منطقة المغرب ، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التى كانت موجوده والتى لم تنبر للتصدى لهذا الخطر وإنما حاول بعضها

التواطؤ معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشـــخصية علـــى المصلحة العامة .

وإلى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عـــن الجزائر، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمـــل وجـــه ، وفـــى أروع صـــور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفـــاع عن الإسلام ، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوربية .

وعندما اختلت موازين القوى ، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشاركة فى السباق انعكس ذلك سلبيا على قوتها العسكرية المتمثلـــه فـــى البحرية مما أدى فى النهاية إلى عدم القدرة على المحافظة على أمن البـلاد . وانتهى الأمر بالأزمة التى اندلعت بين الجزائر وفرنسا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ .

الفصل الثانى

ليبيا (طرابلس الغرب) خلال الحكم العثمانى

بعد أن وقعت طرابلس الغرب[١] فى يد الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس" فى عام ١٥١٠ ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم ٠

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار ، واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الدينى حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الإسلامى لهذا الإقليم العربى الإسلامى ، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية التى تجوب البحر المتوسط ، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس الأهالى ٠ فقد عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الإسلام مستعينين فى ذلك بالمجاهدين المسلمين الذين كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج وخير الدين ، ولكن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية حالت دون ذلك خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة ، وتدعيم قلعتها ، هذا بالإضافة إلى تحالف "الحسن الحفصى" حاكم تونس معهم ومساندتهم ، مما دفعهم إلى الاستنجاد

---

(١) سميت طرابلس الغرب للتفرقة بينها وبين مدينة طرابلس الشام ، وقد اقتصر استيلاء الإسبان وفرسان القديس يوحنا على طرابلس وما جاورها ولم يتوغلوا فى باقى أنحاء ليبيا، وترجع أهمية مدينة طرابلس لموقعها على طريق الحج من الغرب إلى مكة المكرمة، ثم من إتصالها بالطرق التجارية بين أفريقيا وأوربا ٠

بالسلطنة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل • فأرسلوا وفدا إلى السلطان العثمانى "سليمان القانونى" يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبى ، ويعلنون ولاءهم له ، والانضواء تحت السيادة العثمانية • وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثمانى على أقطار المغرب العربى ، كما أن فيه إنقاذ لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليبية ، ومن حركة التنصير التى كان يرغب الإسبان صبغها بهم •

ونتيجة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيادة سنان باشا قائد الأسطول التركى فى ١٣ شعبان ٩٥٨هـ ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها • وقد تكونت هذه الحملة من مائة وعشرين سفينة يساندها خمسون أخرى وستة آلاف جندى ، وأربعين مدفعا • وقد قام "سنان باشا" بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت إلى الاستسلام ، وفتح أبوابها للأتراك ، وإجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء إلى مالطة •

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية ، وقاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء ، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب ، والمحملة بالحجاج وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة •

ويقسم المؤرخون الحكم العثمانى فى ليبيا إلى ثلاثة أقسام هى :

١-العصر العثمانى الأول والذى استمر فيه الحكم العثمانى المباشر لهذه البلاد • وهذه الفترة تنحصر ما بين عامى ١٥٥١/١٧١١م •

٢-حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م •

٣-العصر العثمانى الثانى ١٨٣٥-١٩١١م ٠

وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : العصر العثمانى الأول :

بعد فتح العثمانيين لطرابلس ، قام "سنان باشا" بتنظيم شئونها ، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى استنبول حيث صدر فرمان سلطانى بتعيين "مراد أغا" فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك ٠

وقد واجه "مراد أغا" فى مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة ، وترميم القلعة ، وتنشيط الحياة العامة فى البلاد . بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسبانى وعهد فرسان القديس يوحنا ٠

وقد عمل "مراد أغا" على إعادة الاستقرار إلى طرابلس ، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها ، وشجعهم على العمل فى استثمار الأرض الزراعية ، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل فى الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة ، كما نجح فى زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها ٠

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة ، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها ٠

واستمر مراد أغا فى حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى "تاجوراء" ، وأنشأ مسجده المشهور بها ٠ ويقال إنه استعان فى بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا

وجعله على شكل حصن ، ويعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة فى ليبيا •

وفى أعقاب وفاة "مراد أغا" صدر أمر سلطانى بتعيين "درغوث" باشا" واليا على طرابلس الغرب فى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحى المعمارية فى طرابلس التى جعل منها عاصمة فى الشمال الإفريقى، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط • وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها "درغوث" قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية ، ورد الأخطار عن ديار الإسلام ، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية •

وقد نجح "درغوث" فى القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا فى طرابلس ، ومد النفوذ العثمانى إلى معظم السواحل الليبية • ونتيجة لذلك شهدت طرابلس إنتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى أثناء الاحتلال الإسبانى وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركات العسكرية بها ، وانتقال بعض الجنود المشاركة إليها ضمن القوات العثمانية• وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم ، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى • وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية • وقد انصرف إهتمام "درغوث" فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام "برج التراب" على الجانب الشمالى الغربى من سور المدينة الأصلى ، كما أنشأ مسجده المعروف فى عام ١٥٥٤م والذى لا يزال قائما حتى الآن ، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود ما تزال آثارها قائمة حتى الآن •

وعلى الرغم من الظروف الحربية التي واجهت درغوث ... تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا في ذلك بالأسرى الذين كانوا في حوزته .

ونتيجة للتحصينات التى أقامها "درغوث باشا" لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون فى الهجوم على طرابلس ، أو التفكير فى غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة .

وبعد وفاة "درغوث باشا" تولى "يحى باشا" الحكم فى طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه "محمد بك" الذى ثار الأهالى ضده . ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه "علج على" الذى عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها ، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود لذلك سمى بدار البارود وخلال ذلك نشط "علج على" فى جهاد الإسبان . ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثمانى .

وخلال تلك الفترة ، ورغبة من الدولة العثمانية فى الحفاظ على وجه هذا الأقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالى فى إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا . كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس. ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية فى هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات ، وامتلكوا الأراضى الزراعية وأشجار النخيل ، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم "القولوغلية" (١) .

---

(١) طبقة اجتماعية جديدة نشأت نتيجة اختلاط الجند الإنكشارية بالأهالى ، وكانت فى بدايتها قليلة العدد ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وعسكرية .

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاة كانوا أقل شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم ، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات ، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم ، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وصل "أحمد القره ما نلى" أحد رجال الإنكشارية إلى أريكة الحكم ٠

ثانيا : عهد أسرة القره مانلى : ١١٢٣-١٢٥١هـ / ١٧١١/١٨٣٥م

أسس هذه الأسرة أحمد القره مانلى ، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، وكان يمتلك شخصية قوية طموحة واسعة الحيلة ساعدته على أن يتغلب على كثير من المصاعب التى تعرض لها ٠ فقد وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقولوغلية ، وأظهر عدم انحيازه لأى فريق ، حتى فاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس ١١٢٣هـ/١٧١١م بدلا من الوالى المعين من قبل السلطان ، والذى كان غائبا عن البلاد وقتذاك ٠ ومع ذلك فقد ظلت الصعوبات تواجه "أحمد القره مانلى" فى الخارج والداخل ، فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حملة لتأديبه ، ولكنها فشلت فى مهمتها مما جعل السلطان "أحمد الثالث" يصدر فرمانا ثبته فيه فى حكم طرابلس ومنحه لقب الباشوية ، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته ٠

أما فى الداخل فقد تمكن من القضاء على فتن الضباط الإنكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى ثم أمر رجاله بذبحهم ٠

وقد اعتمد أحمد باشا على العنصر الوطنى فى الجيش والإدارة فأوكل الأعمال الإدارية لأبناء البلاد ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها ، كما كان يتولى بنفسه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية ٠ وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذى كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية ، وبذلك تمكن من فتح طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا ، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية فى جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة ٠

وقد اهتم "أحمد القره مانلى" بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التى لا تدفع له الأتاوة ، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجهة كافة الاحتمالات والتهديدات التى تضمن عدم مهاجمة الشواطئ الليبية بواسطة السفن الأوربية من الخارج ، وإخماد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه فى الداخل ٠٠ لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته ، فبدأ بتجديد أسوار طرابلس وتقويتها ، وشرع فى إنشاء الأبراج ٠ وعنى بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة ، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة ٠

وقد اتسمت علاقات "أحمد القره مانلى" مع الدول الأوربية بالعداء بسبب مهاجمته للسفن الأوربية فى عرض البحر المتوسط ، وفرض أتاوات عليها ، وكانت معظم الدول الأوربية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنها ، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوربية التى سارعت إلى دفع الأتاوة حتى تأمن على سفنها العاملة فى البحر مما أدى إلى حصوله على الأموال الكثيرة والغنائم ٠

وفى عهده هاجم الفرنسيون طرابلس بثلاثة عشر قطعة بحرية ردا على الإهانات التى ألحقها البحارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبة فى

إطلاق سراح أسراهم • ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذى تعرضت له طرابلس من مدافع الأسطول الفرنسى •

وبالنسبة للنواحى العمرانية فقد استطاعت شخصية أحمد القره مـــانلى أن تحفر بصماتها على الحركة العمرانية تتجلى آثارها الباقية فـــى المســجد الجميل الذى يحمل اسمه ، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فـــى عام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة ، وفى البيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها ، وقيامه ببنـــاء "فسقية" لسقى أهل السفن على البحر •

والحق أن أحمد باشا كان من الولاة القلائـل الذيـن خلفـوا طابعـهم المعمارى على مدينة طرابلس •

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقـــدت العديــد مــن الــدول الأوربية، والولايات المتحدة معاهدات معها حتى يمتنعوا عن التعرض لسفنهم فى نظير دفع الأتاوات الباهظة والهدايا الثمينة لهم ممـــا أكــد اســتقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين وأثبت أن العلاقة معهم لا تزيد عن علاقـــة إســمية تتسم بالولاء للسلطان العثمانى ، وترتبط بالصلات الروحيـــة مــع الدولــة العثمانية ، واستمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عاما اسـتطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا ، وتأكيد وحدة هذه البلاد وقـد خلف "أحمد القرمانلى فى الحكم ابنه "محمد باشا" (١١٥٨هـ/١٧٤٥م) فقـــد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة ، يضاف إلى ذلك أنـــه ورث حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها ، وزادت إيراداتها ، وأصبحت مهابـــة الجانب من الدول الأوربية البحرية فقد تسارعت هـــذه الــدول إلـــى عقــد المعاهدات معه ودفع الأتاوات له • وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الآستانة •

ومع ذلك فلم تخل فترة محمد باشا من فتن وثورات ، كان من نتيجتها إضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر ، وانتشرت أعمال اللصوصية والسلب والنهب لدرجة أن ضج الناس ، واستصرخوا الباب العالى ، وزاد الطين بلة إنقسام الأسرة القره مانلية على نفسها مثل فتنة "أحمد بن حسن كخيا" صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا . وعلى الرغم من نجاح الباشا فى إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته فى ٢٤ يوليو ١٧٥٤م وله من العمر ٤٥ سنة .

أما الحاكم الثالث من أفراد الأسرة القره مانلية فكان "على باشا" الذى تولى أريكة الحكم وعمره ثلاث وعشرون سنه ، وكان لحداثه سنة أكبر الأثر فى مشاركة قادة الإنكشارية له فى الحكم ، على أن أهم الأحداث التى عصفت بحكمه تمثلت فى المجاعة وانتشار الطاعون بين الأهالى وعجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند والأساليب التعسفية التى لجأ إليها رجال الباشا خلال جمع الأموال من القبائل ، هذا بالإضافة إلى الأحداث التى ارتبطت بالشقاق العائلى بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين "حسن القره مانلى" وأخيه "يوسف" الذى انتهى بمقتل الأول واستعانة بعض أفراد الأسرة بباشوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانلية من الحكم وما صحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه . كل ذلك كان له أثره على الحياة العامة فى البلاد وانتهى الأمر بصدور فرمان سلطانى بتولى "يوسف بك" أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخيه "أحمد الثانى" الذى كان أحق منه بالولاية . ولتوضيح الوضع العام الذى كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة ، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت فى أسوأ حال غداة استيلاء "يوسف باشا القره مانلى" على السلطة وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب فى سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامه ومهما كان الرأى حول الطرق التى سلكها هذا الرجل فى

الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشئ من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضارى فى عهده . مما كان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد .

وقد أهتم "يوسف باشا" بتشجيع حركة الملاحة ، وإعادة تنظيم البحرية التى كانت تشكل المورد الرئيسى للبلاد ، كما أهتم بمتابعة الأحداث فى البحر المتوسط والصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وقام بتشجيع حركة القرصنة التى كانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثبيت حكمه ، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية ، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة "أبى قير البحرية" مما أدى إلى استياء انجلترا والدولة العثمانية أيضا من موقف يوسف باشا ، ففى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان العثمانى إخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء فى مصر . ونتيجة لاستياء الدولة العثمانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه ، وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا . أما عن علاقة "يوسف باشا" بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية ، وإجبارها على دفع الأتاوات . ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبة الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل ، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى "فيلادلفيا" على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأسرها جنود "يوسف باشا" بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الأتاوات التى تفرض على سفنها .

ونتيجة لقرارات مؤتمرى فينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها توقفت الدول الأوربية عن دفع الأتاوات

مما أدى إلى نضوب خزانة "يوسف باشا" مما دفعه إلى الاقتراض من الأجانب ، وفرض الضرائب على الأهالى واتباع أسلوب الشدة والبطش ضد معارضيه . وانتهى الأمر بتخليه عن الحكم لابنه على فى ربيع الآخر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م .

وقد بذل "على القره مانلى" جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده .

ومع ذلك فقد استمرت الثورات ، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن ، وعدم انتظام الأمور مما أدى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة ، فهيأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة "مصطفى نجيب باشا" وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالى بكل مظاهر الحماس . وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثمانى المباشر على الإقليم حيث قرأ "نجيب باشا" أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطانى بعزل "على باشا" وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الآستانة ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية ، وأبلغهم بذلك وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القره مانلية .

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالى ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها .

ثالثا : عهد الولاة العثمانيين بعد انتهاء حكم أسرة القره مانلى (العهد العثمانى الثانى) :

تولى شئون ليبيا فى الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهى الفترة التى يطلق عليها العصر العثمانى الثانى ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد ، وتدعيم سلطة الحكومة فى مدينة طرابلس والمناطق الداخلية ، هذا بالإضافة إلى تعقب شيعة الأسرة القره مانلية المعزولة .

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت فى الموقف المعادى من زعماء الداخل مما تطلب منها حشد قواتها للقضاء على عصيانهم خاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس فقد "اهتم نجيب باشا" أول وال عثمانى بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد ، ومع أن "غومة المحمودى" أحد زعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة ، ومساندة الموقف الموالى للحكم الجديد فإن الوالى التركى لم يطمئن إليه وأودعه السجن ، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق فى المناطق المجاورة لمدينة طرابلس خاصة ضد أهالى الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب ، وأظهروا رغبتهم فى التمسك بالحكم الذاتى ، وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره فى استسلام بقية المناطق المجاورة لطرابلس .

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكرى صارم تمثل فى سياسة القوة التى سلكتها الحكومة العثمانية .

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع سوءا بعد أن انتشر مرض الطاعون فى ليبيا ، وارتفع عدد ضحاياه ، مما أدى إلى هجرة معظم السكان للبلاد .

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال "رائف باشا" على ترقية شئون البلاد • أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنه فلا يكاد أحدهم يستقر فى ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره، لذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ ممكنه من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه فى منصبه لن يطول • لذلك لم يهتم الولاة بأى عمل جدى فى الولاية ، كما صرفوا وقتهم فى إخماد الثورات التى اتسع نطاقها ، فقد تزعم "عثمان أغا" الثورة فى "مصراته" وأكد "عبد الجليل سيف النصر" سيطرته على فزان ، وقاد "غومة المحمودى" الثورة ضد الحكومة فى "يفرن" بالجبل الغربى هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم •

وقد نجحت هذه الثورات فى إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار إلى البلاد ، وزاد الطين بلة تعرض البلاد للمجاعات بسبب قلة الأمطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الأتاوات من السفن الأوربية•

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل فى الإصلاح لم ينقطع ، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والإنشاءات العسكرية توضع فى سجل تاريخهم • فلما تولى "على عسكر باشا" (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد ، وبناء دار جديدة للحكومة ، وعندما تولى "محمد أمين باشا" الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سياسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان ، وقد هيأت مدة حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التى شملت القضاء والإدارة والشئون المالية فتم تنظيم الأقسام الإدارية فى الولاية وأنشئت المجالس المحلية ، ووضعت السجلات المتنوعة،

وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها ، ولعل من أبرز أعماله المتنوعة إنشاء المستشفى العسكرى بطرابلس ٠

وفى ولاية أحمد عزت باشا (١٨٤٨) التى تميزت بالهدوء فى بدايتها تم عمل إحصاء للسكان ، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية وقد صرف هذا الوالى جهده إلى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف فى وجه السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى توطيد أطماعها فى الشمال الأفريقى ٠

وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوربى والوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية ٠

وفى ولاية "محمود نديم باشا" (١٨٦٠) والتى بلغت سبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة ، فقد اهتم هذا الوالى بتطوير الأوضاع العامة فى البلاد ، وتطوير مزروعاتها ومصنوعاتها ٠ كما قام بعمل تنظيم إدارى جديد لليبيا فأنشأ المحاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالى ، ففى عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتجارية ، وفى عهده انشئ أول مطبعة فى طرابلس ، وصدرت أول جريدة بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية ٠ وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسواق ودور التخزين وفى عهده تم فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجهة ، وتسهيلا لسبل الاتصال بين سكان المدينة والقرى المجاورة ٠ كما اهتم الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى فى ليلة عاشوراء من قيام بعض الرعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به فى أزقه وحوارى البلاد ٠

وما من شك فى أن طرابلس نعمت فى عهد هذا الوالى بـــالكثير مـــن الهدوء والاطمئنان ، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضـــل مـــا أبداه من رغبة فى تطويرها والنهوض بها ٠

وفى عهد "الفريق على رضا" (١٨٦٧) الذى جمع فى شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالى تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالـــها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعابر فى داخل المـــدن وخارجها وتنظيم شئون البريد ، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلـــى الخمس ثم إلى الحدود التونسية ، وتشجيع حفر الآبار الارتوازيـــة ، وربـــط الأودية ومدها بالترع والسواقى ، وتأسيس سوق العزيزية والحديقة العمومية وإنشاء الساعة التى ما تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس ، والتى تعد من المعالم الأثرية الباقية التى توضح قدرة هذا الوالى على تجميل هـــذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظى بتعاطف وإعجاب الأهالى ٠

وفى ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واســعة من النمو والتطوير ، فازداد النمو فى مبانيها ، وتم تبليط شوارعها ، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالى على الماء ٠

وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء فى عام ١٨٨٣ كمـــا تم فى عهده إنشاء الرصيف الذى عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بـــهدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر ٠

لقد كان الأثر العمرانى الذى خلفه أحمد راسم باشـــا علـــى طرابلـــس واضحا ، ولا شك فى أن أعماله العمرانيـــة واهتمامـــه بمدينـــة طرابلـــس وتطويرها وتجميلها تضعه ضمن الولاه الذين تركوا أثرا فى الحياة العامـــة بليبيا ، فقد نعمت البلاد فى عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا فى كافة مرافقها ، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية ٠

وجاء بعد راسم باشا ، نامق باشا الذى استمر فى الاهتمام بالتجهيزات العسكرية ، ووجد صعوبة فى فرض التجنيد الإجبارى ومن الإنشاءات الهامة التى تمت فى عهده تأسيس مدرسة الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه .

وفى عهد الوالى حافظ باشا تم العمل على تنظيم الإدارة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقصرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم .

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء إنتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالاستانة ، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التتريك التى كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم .

وهكذا لم يرتبط الحكم العثمانى فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها ، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة خاصة وأن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدى دافعيها . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة ، وفضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التى قامت فيها الزوايا السنوسية خصوصا فى فترة العهد العثمانى الثانى . فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين

العثمانيين والأهالى . فقد قبل الأهالى الزعامة السنوسية كممثلة لهم وناطقة باسمهم . واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه. فقد جاء أول اعتراف رسمى بالسنوسية فى فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول (١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم ، وأعفى زواياهم من الضرائب ، كما ثبت السلطان عبد العزيز (١٨٦١) هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية "حمى" يمكن للناس أن تحتمى فيه . وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقات المودة مع السنوسيين . وفى نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الأهالى فى المناطق النائية ، كما اعترفت بفكرة الخلافة العثمانية والدعاء للسلطان العثمانى على منابر المساجد يوم الجمعة على أساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة لذلك فإنه يحق لآل عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين.

ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين ، وزاد أتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينية وزمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية. واستمرت الأمور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميد الشكوك فى نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوربيين ضدهم لدرجة أصدرت معها الدولة العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على ما تنتجه أراضى الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك .

وعلى أى حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالها تطلعت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادى والثقافى فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما فى كل من طرابلس

وبرقة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذى لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية ، بل نشط فى عمليات الرهن والتسليف مع الأهالى ، وإقراض الأموال لأصحاب الأراضى الزراعية ثم سلبها منهم ، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية فى ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية ، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء ، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية فى ليبيا ومسح أراضيها هذا فى الوقت الذى لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالى فى ليبيا .

ولكى تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك فى ليبيا ، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد ، والنهوض بها . وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها فى ليبيا هى :

١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازى ودرنة .

٢- تشكيل قوات عسكرية فى هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين .

٣- أن تكون إدارة الجمارك فى ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين .

٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها .

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية فى هذه البلاد ، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالى على الرعايا الإيطاليين بخاصة ، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون على حياتهم ، ويشرعون فى الهجرة من هذه البلاد . ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية مضطرة حرصا على مصالحها وشرفها إلى إحتلال طرابلس وبنغازى إحتلالا عسكريا وقد

صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالى فى الآستانة بالحصول علــى رد مــن الحكومة العثمانية على هذا الإنذار فى مدة أربع وعشرين ســاعة وإلا فــإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى إحتلال ليبيا ·

وعند تحليلنا لهذا الإنذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولانجد ســببا واحدا معقولا من الأسباب التى وردت فيه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العدائى · فهل من المنطقى أن تهدد إيطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولــة العثمانية لم تعمل على النهوض بهذه البلاد · وهل مــن المنطــق أن تــهدد إيطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها إمتيازات إقتصادية ، تناقض حقوقها فى هذه البلاد ·

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعــف الدولــة العثمانيــة وانشغالها وسوء أحوالها فى تحديها والإفتراء عليها ، كمــا أنــها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالى إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير فى مشــاكل بلاده الداخلية ·

وكان رد الدولة العثمانية على هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من إتهامات إيطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الإيطاليين ومشــروعاتهم الاقتصادية فى طرابلس وبرقة ، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلديــن بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السليمة مقابل أن تعطــى إيطاليا مركزا ممتازا فى ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوربية تطلب منها التوسط فى الأمر ، ولكن إيطاليا رفضت كل هــذه المحاولات ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى ٢٩ ســبتمبر ١٩١١ وبدأت فى محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعــد قتــال غــير متكافئ حدث خلاله مجزره بشريه تمثلت فيها أفظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احتلال الموانى والنقط الساحلية فى ليبيا فى أكتوبر ١٩١١ أمــا

باقى المناطق فقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التـــى وقفــت للإيطـــاليين بالمرصاد ٠

وقد واجه المجاهدون الجيش الإيطالى فى معارك طاحنة استبسلوا فيها ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكثر الأثر فى حســم المعركــة لصالح إيطاليا ٠

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد العون الفعلية إلى الأهـــالى وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف إضطرت إلى عقد معاهدة "أوشى لـوزان" مع إيطاليا والتى انسحبت بمقتضاها من ليبيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركتها لقمة سائغة للإيطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الإيطالى بمفردهـم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة ٠

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية مـــن ليبيــا تاركــة الزعامــة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين ، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصـــر العثمانى وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الإيطالى ويبقى لدينا فى هـــذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى ولأحــوال هــذه البــلاد الاقتصاديــة والاجتماعية فى ظله ٠

١- نظام الحكم العثمانى فى ليبيا

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية ، وبعدهـــا عــن مقــر السلطة أكبر الأثر فى رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الوالى مخافـــة أن يستقل بالبلاد ، مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثمانى أى سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليـها حركة عمرانية ٠ حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعــــاظمت بعــض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية فقد اهتمت الدولـــة العثمانيـــة بـــإقليم

طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا ، كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية فى الداخل ، وأدى إلى أضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة فى كثير من الأحيان ، وانحدار هيبة الوالى . وكثرة الفتن والثورات خاصة فى مناطق القبائل . لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى "الكاهية" و"خازندار" يختص بشئون الخزينة ، إضافة إلى الكتبة ، والمستشارين ، وقاضى الجند ، والموظفين الإداريين ووكيل الجباية والخراج وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسلون من استنبول .

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين الأول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان ، والثانى بنغازى ويضم المنطقة الشرقية . وقد مرت طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون سلطة الحكومة قوية تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية ، ويصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام . ومع كل ذلك فقد نظر الأهالى للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا .

وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة ، والطرق المتفقة مع الشريعة الإسلامية ، فطبقت ضريبة العشر ، والخراج ، والمكوس الجمركية ، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على العقارات والدواب .

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا فى إقتصاديات البلاد ، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية ، ويوزعون ما يغنمونه منها بعد إقتطاع الخمس للحكومة .

٢- مظاهر الحياة الاقتصادية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

أ- الزراعة

انقسمت الفلاحه فى ليبيا إلى قسمين قسم بشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضى المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه ، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر، وكان إنتاجهم يزيد عن حاجات الأهالى ، ويصدر الفائض منه إلى موانى إسبانيا عن طريق البحر ٠ وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون ٠

أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب ، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغيبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة ٠

ب- التجارة الداخلية

كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها :

- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة ، وهو على شكل أربعة صفوف ، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلئ والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية ٠

- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات ٠

- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة ، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة ٠

– سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم في متاجرهم الصغيرة به ، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشترى فيها معظم ما يريد . ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوربية الصنع .

– سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشتهم حيث يجرى المزاد العلنى ، وفيه يجلس اليهود والمالطيون لخياطة ، وبيع الأنسجة المختلفة .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقاله والملابس النسائية والحريرية والأوانى النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذى كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وتعقد فيه الصفقات .

جـ– التجارة الخارجية

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة ، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوربية خاصة إيطاليا كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق ، والعائدة من الغرب إلى الشرق . وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية ، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة فى أسواق طرابلس ، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوربا فى عهد الأسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس إذ أن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات .

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال تومبكتو وبورنو ، فقد كان يأتى منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء ، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة ، والفواكة المجففة وبعض التوابل هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام ٠

د- الصناعة

مارس السكان الصناعة التى كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت فى ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والدباغة وكانت لها أسواقها الرائجه داخليا وخارجيا ٠

٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة فى المرحلة المعروفة باسم العهد العثمانى الأول وهى المرحلة التى تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية ، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأى نوع من أنواع النشاط الثقافى والعلمى خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئه من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة ، وقد ادى إهمال شأن العلم والعلماء إلى إنحدار المستوى الفكرى بين الأهالى الذين سيطرت عليهم الخرافات ، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد فى كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق ، ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دورها فى نشر التعليم الدينى ، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره [illegible] مسجده كانت ذات أثر ملموس فى إنعاش الحياة العلمية فى البلاد ٠

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثمانى الثانى فتحصر فى جهود أحمد باشا راسم فى تطوير حركة التعليم والوقوف فى وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التى كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية وصبغها بثقافتها ٠

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام فى طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه "أبى على الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسى" وأحمد بن عبد الحميد اليربوعى كما تنحصر فى جهود نامق باشا الذى تأسست مدرسة الفنون والصنائع فى عهده ، وصدرت فى عهده جريدة الترقى لصاحبها "الشيخ محمد البوصيرى" ومجلة الفنون لصاحبها "داود أفندى" وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التى كانت سائدة بين المثقفين فى ذلك الوقت ، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التى تشغلهم وأسهمت بشكل واضح فى تطوير الحركة الثقافية فى البلاد ٠

وفى جهود الوالى حافظ باشا الذى شهد تطور التعليم فى عهده دفعة كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين ، ومدرستين كبيرتين ، ومدرسة للبنات، وإلى جانبْ ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية فى بعض المناطق الليبية ٠

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاه العثمانيين بل قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية عالية ، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين ، وأخرى للبنات ، وروضة أطفال للبنين وأخرى للبنات ، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها ٠

وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها :

١-أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية فى ليبيا ولم يهتموا بالدواخل ، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولم تلق من الحكومة العثمانية إهتماما واضحا ·

٢- أن أغلب مدة الولاة العثمانيين فى ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالى ·

٣-كثرة الحروب الداخلية خاصة فى عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة خاصة مرض الطاعون ، وعدم نجاح الحكومة فى السيطرة عليه ، وخاصة وأن اهتمامها بالنواحى الصحية كان ضئيلا ·

٤-الإجحاف فى فرض الضرائب على الأهالى ، وسوء طريقة تحصيلها منهم ·

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم فى ليبيا خاصة وأن أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين خاصة وأن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايات فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية خاصة وأن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية للمواطنيين العرب المسلمين فشاركوهم في الاحتفالات الدينية ، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية ·

الفصل الثالث

تونس تحت الحكم العثمانى

كانت تونس الخضراء مقرا للولاة العرب فى المغرب ، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين ٠

وبعد أن أدار الفلك دورته ، وكشر الزمن عن أنيابه تنازع تونس الفوضى ، وأصبح الضعف والتفكك السياسى إحدى سماتها البارزة خاصة بعد اعتلاء "محمد بن الحسن الحفصى" العرش فى عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته ، وفى أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها ، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها ٠

وبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين كان من الضرورى أن تكون وجهة الأسطول العثمانى تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين خاصة وأن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة وطرابلس ضد المسلمين ٠ ٥

ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانونى أنه من أجل تأمين قواعد قواته فى البحر المتوسط ، وترسيخ وجودها فى الجزائر لابد من السيطرة على تونس ، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين فى تونس قد لجأ إلى الأستانة طالبا المساندة العثمانية لاستعادة عرشه ٠ وبعد أن هيأ السلطان الأمر لذلك استدعى "خير الدين بربارosa" إليه فى إستانبول فى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م ، وعهد إليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدى الإسبان ، وتحويلها إلى ولاية عثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل

الخامس فى الاستيلاء عليها . وفى أعقاب حصول برباروسا على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان توجه بالأسطول العثمانى المؤلف من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندى إلى منطقة "بنزرت" فى غرب تونس حيث حظى هناك باستقبال طيب من الأهالى ، ومن "بنزرت" توجه الأسطول العثمانى إلى منطقة "حلق الوادى" في عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م ودخل "خير الدين" بقواته إلى العاصمة التونسية التى تركها حاكمها "الحسن الحفصى" وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء . وفى أعقاب ذلك أعلن "خير الدين" نهاية حكم الحفصيين ، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثمانى مما قلب موازين الأمور ، وزاد من حدة الصراع الحربى بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية ، وتحكم موانيها فى المواصلات البحرية فى منطقة البحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا ، ومجاورتها لجزيرة مالطة . ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالى تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التى أدخلها فى بلادهم . ومن أجل حفظ النظام والأمن وزع "خير الدين" قواته في كافة أنحاء البلاد . وبينما كان "خير الدين" يوطد سلطانه فى تونس لجأ "الحسن الحفصى" إلى "شارل الخامس" ملك إسبانيا طالبا العون ضد "خير الدين" والعثمانيين . وقد استجاب "شارل الخامس" لمساندة "الحسن الحفصى" ، وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط .

وفى ذى القعدة ٩٤١هـ / مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة ، ٢٦٥٠٠ رجل ، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها "الحسن الحفصى" بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التى واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس ، مما اضطر "خير الدين" إلى الانسحاب إلى الجزائر .

وبعد أن دخل "الحسن الحفصى" مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلب والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام ، وفى أعقاب ذلك وقع "الحسن الحفصى" مع "شارل الخامس" معاهدة تخلى خلالها عن "حلق الوادى" و"قرطاجنه" و"مدن عنابه" و"بنزرت" و"المهدية" للإسبان ، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضييق .

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة ، وتولى "الحسن الحفصى" حكمها باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية .

وقد رد "خير الدين" على ذلك بغارة مفاجئة على "جزر البليار" واستولى منها على سته آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر .

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطئهم مع "الإمبراطور شارل الخامس" واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطر بعدها "الحسن الحفصى" إلى الرحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوربا ، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو "درغوث باشا" واستطاع أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحرى فى شمال أفريقية ، واستولى على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيروان واحتلها ، وأقام فيها حامية فى عام ١٥٥٨م . ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم من الحفصيين .

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس ، فأرسل أسطولا ضخما يحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة "مصطفى باشا" لمحاصرة الجزيرة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها . فبعد حصار أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد ، وارتدوا على أعقابهم .

واستمرت الأحوال فى تونس كما هى حتى تولى "علج علـــى" أريكـــة الحكم فى الجزائر فقاد حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإسـبان نجح خلالها فى هزيمة القوات الحفصية ودخول تونـــس فـــى نهايـــة عـــام ٩٧٧هـ /١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثمانى ٠

ونظراً لأهمية موقع تونس عمل "علج على" على تقوية حاميتها قبـــل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عـدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم "أوجاق باشي" كما تم تعييـن القائد "رمضان" حاكما عاما لتونس ، وبعدها غادر "علج على" تونس متوجها إلى الجزائر فى رمضان ٩٧٩هـ / ١٥٧٠م ٠

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـ/١٥٧١م التى هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم سارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت فى ذلك خاصة وأن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية ، كما استباح الإسـبان "جامع الزيتونة" ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به ٠ ونتيجة لذلـك أرسـلت الآستانة أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونه بالجند ، لاستعادة تونـس وإحياء روح الجهاد بين أهلها ٠

وقد تمكن "سنان باشا" والقبطان "علج على" من استردادها فـــى عـــام ١٥٧٤م ، وإبادة الحامية الإسبانية هناك ، وإنهاء حكم الحفصيين المتعـاونين معهم ٠ وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحريـر تونـس مـن الإسـبان ، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية ٠

وقبل أن يغادر "سنان باشا" تونس عمل على تنظيم شئونها ؛ وكان مـن أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك أربعـــة آلاف جنـدى إنكشارى ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد ، كما كون فيـها إدارة كـانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها ، وأعضاؤها من المجلس الذى يرأســه الباشـا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشارى مكون مـــن كبـار الضبـاط

والمسئولين ، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباى وبعد أن نظم "سنان باشا" أمور تونس غادرها إلى استنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم "عثمان باى" الذى حاول النهوض بالبلاد و"يوسف باى" الذى نهض بالنواحى التعليمية .

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ، ويتوارثها أبناؤهم أحيانا وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجه عن التنافس بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتى تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين .

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن "حسين بن على" أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالى وقواد الجند . وقد استطاع "حسين بن على" أن يعيد هيبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبيات المسلحة ، وأنشأ جيشا قويا .

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان ، واكتفى السلطان بالولاء الإسمى وبالدعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوربية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية ، وأخذ البايات يسيرون فى طريق الإصلاح .

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية ، وتراكمت الديون عليها . وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر "أحمد باى" ١٨٣٧-١٨٥٥

أنفق الكثير من الأموال فى بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات ، وفى عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى فى نهاية الأمر إلى التوسع فى الاستدانة ، ووقوع تونس فريسة فى أيدى الدول الأوربية واقحام الأجانب فى شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التى أرادها الباى ، وإجبارها على إصدار ما يسمى "بعهد الأمان" الذى أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية فى تونس · حقيقة أن هذا العهد شمل فى نصوصه العديد من المنافع ، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه ·[٥]

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها فى منع قيام نظام فى تونس يهدد إحتلالها للجزائر · وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها · فقد رغب المستشار الألمانى "بسمارك" فى إبعاد فرنسا عن التفكير فى هزيمتها فى الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين · وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوربا ·

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسى فى تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين خاصة وأن هناك معاهدة بين إيطاليا والباى عقدت فى عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا ·

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها إمتداد طبيعى للجزائر ، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها · فأرسلت قواتها فى مايو ١٨٨١ إلى قرب العاصمة التونسية ، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام ، ولكنها ما كادت تصل إلى

العاصمة حتى أجبرت الباى على عقد "معاهدة باردو" فى ١٢ مـــايو ١٨٨١ والتى أعلن الفرنسيون فى أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة علـــى الأمن ورعاية حسن الجوار ٠ وإلى جانب ذلك فقد كبلـــت فرنســا تونـــس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسى فى تونس هو صاحب الكلمة العليا ، وتولت فرنسا تمثيل تونس ، ورعاية مصالحها فى الخارج ٠

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافـــق فـــى تونـــس ، فانتشـــر الموظفون الفرنسيون فى المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثـــير مـــن الأراضى الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين ، وإلى جـــانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية ، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربى ، وبحضارتـــهم الإســـلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية ٠ ونتيجة لذلـــك بدأت الحركة الوطنية فى تونس فى شكل حركة إسلامية ، وكانت "مدرســـة الزيتونة" معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية ، كما بقى مسجدها حارسا للـــتراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا ٠

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التى كـــان يرددهـــا السلطان العثمانى "عبد الحميد" ملتقى أفئدة التونسيين ، ثم تبلورت الحركـــة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونـــس والاعـــتراف باستقلالها فى ١٧ مايو ١٩٥٦ ٠

نظام الحكم العثمانى فى تونس :

تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد "سنان باشا" عقب فتحـــها عام ١٥٧٤م ، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشارى ٠ فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندى إنكشارى فى تونس لحمايتها ، وأسند حكمـــها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء ٠ وكان "حيدر باشـــا" أول أمـــير لأمراء تونس وكان يسانده ديوان للمشورة ٠ كما اســـتحدث "ســـنان باشـــا"

منصب أمير اللواء بهدف حفظ الأمن ، وعين قاضيا للأحكام الشرعية ، كما عين جابيا يلقب بالباى .

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاة عسكريون . ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فسرعان ما سيطر الجند على الأمور ، وقاموا بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء ، واستحداث نظام الدايات الذى استمر قائما فى تونس حتى عام ١٦٤٠م ، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو "مراد بك" أن يخضع حكومة الداى لنفوذه ويقوم بتأسيس "الأسرة المرادية" وأن يحصل على لقب باشا من الباب العالى . وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن "حسين على" أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة ، وتأسيس "الأسرة الحسينية" التى بدأ حكمها فى عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسى لتونس ، ومما يذكر هذه الأسرة أنها حافظت على الطابع العثمانى فى الحكم ، من حيث الاعتماد على طبقة الإنكشارية ، واتخاذ المذهب الحنفى مذهبا رسميا بدلا من النظام المالكى الذى يتبعه معظم الأهالى .

وعن موارد الدخل فى تونس وطرق الصرف منها ، فلم تفرض الدولة العثمانية على تونس أموالا تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقى الولايات ، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير فى الجزائر .

وكانت الضرائب التى تجبى من الأهالى تستخدم فى الصرف على مصالح الولاية ، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات ، وتجهيز الحملات.

مظاهر الحياة الاقتصادية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

تمثلت هذه الحياة فيما يقوم به السكان من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى خاصة وأن طبيعتها المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد ساعدت على ذلك • وقد ارتبطت الزراعة فى تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها فكان هناك الأراضى الخصبة المحيطة بالمدن ، وكان هناك الأراضى التى تصادر من القبائل وتمنح لكبار الموظفين كما كان هناك الأراضى التابعة لقبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعى والرعوى •

وكانت الحبوب والخضر والفواكة أهم منتجات تونس وقد ساهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير فى حركة التجارة الداخلية والخارجية • فقد نشطت حركة التجارة بين الولايات المغربية وبعضها البعض •

وبالنسبة للصناعة فقد تميزت تونس بصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس •

مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

شهدت تونس خلال العصر العثمانى نفس المظاهر التعليمية والثقافية التى كانت موجودة قبله ، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنه النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونه اليد الطولى فى ذلك • كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى •

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية •

وكان يطلق على الكتاب فى المناطق الحضرية كلمة مسيد " وهى تحريف لكلمة مسجد ، وكان يوجد ذلك "المسيد" قرب الجامع وأحيانا يكون

جزءا منه • ويوجد كل من المسجد والمسيد فى كل حى عند نهاية الشـــارع وتقاطع الطرق ، ويكون على مكان مرتفع نظرا لرفعه شأن القــرآن الــذى يتعلمه التلاميذ فيه •

وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون فى تونس العديد مـــن المـــدارس التى ساعدت على إحياء المذهب المالكى •

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة "**الشيخ محمد بن أبى الفضـــل خروف الأنصارى التونسى" (ت٩٦٦هـ/١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب** جامع الزيتونة فى تونس (ت٩٩٣هـ/١٥٨٥م) •

الفصل الرابع

العثمانيون ومراكش

إن مراكش ذاك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر ٠

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس ، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة وأن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق ٠ فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية إقاليم العالم العربى ، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك ٠

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية ، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس "أبو حسون الوطاسى" مساعدة السلطان العثمانى "سليمان القانونى" الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش ، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس"٠

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثمانى بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع "أبى حسون الوطاسى" . وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس فى عام ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية" على مراكش تحت السيادة العثمانية . ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع "محمد المهدى السعدى" استرداد فاس من العثمانيين .

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانيـــة أمـــر السلطان سليمان القانونى بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش ، وقد عـــهدت قيادة هذه الحملة إلى "صالح ريس" وكان من المتوقـــع أن تســتقر الأمـــور للعثمانيين هناك خاصة وأن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامى لتصفية الجيوب الصليبية فى مراكش وفـــى دخـــول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعا ، ولكن الســـعديين رفضـــوا الاعتراف بخلافه السلطان العثمانى على أساس أن العثمانيين ليســوا عربـــا وإنما هم أعاجم ، وبأن الشرافة فى مراكش يجب أن تكون لهم خاصة وأنـــهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول وازداد تطلع الباب العالى إلى ضـــم المغـــرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة "عبد الله الغـــالب بـــالله السعدى" (فى رمضان ٩٨١هـ/ يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بـهذا العرش بالآستانة ، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قـبرص ، ولجوء أعداء العثمانيين فى المغرب إلى سياسة التقـــرب مـــن دول أوربـــا الغربية قد حال دون ذلك .

وبعد معركة وادى المخـــازن فـــى ٣٠ جمـــادى الأول ٩٨٦هـــ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨ التى انتصر فيها "عبد الملك السعدى" على القوات الإسـبانية إعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى ، وتوقفـــت عن فكرة التدخل المباشر فى المغرب ، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود ، وتبادل الطرفان الرسائل التى تدل على حسن علاقات الجوار بينهما .

وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القــوى الصليبيــة المتحالفة ضد المسلمين ، وكان استرداد المدن المغربية مــن تلـك القـوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون • فقد اتبع "أحمــد المنصور" الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجــهاد الإسلامى لمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية ، وذلــك بنشــر الإسلام بين الأفارقه ومد نفوذ دولته من حوض نهر الســنغال حتــى نــهر النيجر • وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الإسمى لســلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان •

وقد حاول "أحمد المنصور" فى حركة الجهاد البحــرى ضــد القــوى الأوربية المعادية أن يضرب القوى الأوربية ببعضها فحاول التحــالف مــع انجلترا و هولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فــى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة •

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشـراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن "المهدية" و"العرائش" و"أصيلة" أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء "طنجة" ومدينة "مزاغان" من يد البرتغاليين • وبالنسـبة للدول الأوربية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكــام المغــرب معــهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذى استمر حكمـــه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شــمال أوربــا ومــع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦ ، كما توســط لــدى حكــام تونــس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة ســفن الولايــات المتحــدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائــر فــى عــام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوســط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء •

وانتهى الأمر بقيام انجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فــى عــام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحــة فــى البحــر المتوســط ، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف • وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء علــى السفن المغربية ، والاستيلاء على مدينة تطوان • ومنذ ذلك الوقت تزايــدت الأطماع الأوربية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢ •

ـــــ

مما سبق يتضح أن الحكم العثمانى لأقطار شمال أفريقيا الثلاثة الجزائر - طرابلس الغرب - تونس لم يكن كله إيجابيا ولا كان كلـــه سـلبيا . فقـد استفادت هذه البلاد من الحكم العثمانى خلال مواجهتـــها للخطـــر الإسـباني المتحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة ، واستفادت من تأخير الغـــزو الاستعمارى الأوربى لها عندما كانت الدولة العثمانية قوية ، كما استفادت من بقاء الفكره القومية ومقوماتها فى النفوس خاصة وأن العثمانيين أبقوا أوضاع هذه البلاد كما هى ولم يقوموا بتتريكها ، كما حافظوا على النظام الاجتماعى بها ، بينما لم تستفد هذه البلاد حضاريا من الحكـــم العثمـــانى خاصـــة وأن العثمانيين لم يكن لديهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى الولايـــات العربية التى كانت تتمتع بحضارة تفوق ما لدى العثمـــانيين مـــن حضـــارة وبالنسبة لضعف نظام الإدارة فى هذة البلاد خلال الحكم العثمانى فقد كـــان لبعد المسافة التى تفصل بين تلك الولايات وعاصمة الدولة أكبر الأثـــر فـــى عدم إحكام الدولة لقبضتها الإدارية على هذه البلاد ، وفى عدم تمكنـــها مـــن حسم الصراع الذى كان كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسر الحاكمة بل كـــانت تقوم بتسكين الأمور بدلا من حسمها .

وبالرغم من ذلك فقد اعتبر أهل شمال أفريقيا الدولة العثمانية بمثابـــة الإنقاذ الإلهى الذى جاء لمساندتهم فى مجابهة الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بالإساءه لدينهم ووطنهم .

وبالنسبة لحركة الجهاد البحرى الإسلامى فقد أوضحت هذه الدراســـة أنها لم تكن حركة قرصنة كما يدعى البعض خاصة وأنها كانت تهدف للدفاع عن النفس ضد قوى صليبية هى فى حالة حرب معها ، وأنها كانت ردا على ما فعله الإسبان ضد مسلمى الأندلس ، وردا على ما فعله البرتغاليون ضـــد

البحرية الإسلامية فى أعقاب معركة ديو البحريـــة ١٥٠٩م والذيـــن أثبتـــوا خلالها روحهم العدائية لكل ما هو مسلم ومن هذا المنطلق كان لابد لاقطـــار المغرب العربى من اتخاذ الحذر والحيطة ، وإعلان الجهاد الإسلامى ضـــــد أعداء الإسلام خاصة الإسبان ، والبرتغاليين ، وفرسان القديس يوحنا ، وكان لابد من دخول العثمانيين إلى هذه الحلبة لإعادة عملية التوازن بين المسـلمين والصليبيين • يضاف إلى ذلك أن الوجود العثمانى فى ولايات شمال أفريقيـا لم يكن وجودا عسكريا فحسب بل ترك ملامحه فى نظم الإدارة وأنماط حيـاة السكان وغيرها •

ثبت المصادر والمراجع

فيما يلى أسماء بعض المصادر والمراجع التى استعنا بها فى وضع هذا الكتاب . نذكرها ليفيد منها من يرغب فى متابعة هذه الدراسة بشئ من التفصيل .

أولا : العربية :

- **أحمد عزت عبد الكريم :** دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- **أحمد صدقى الدجانى :** ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالى أو طرابلس الغرب فى أواخر الحكم العثمانى الثانى ١٨٨٢-١٩١١ القاهرة ، ١٩٧١ .
- **ارجمند كوران :** السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر - ترجمة عبد الجليل التميمى - تونس ، ١٩٧٤ .
- **خليفة التليسى :** حكاية مدينة ، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، ليبيا ، طرابلس ١٩٧٤ .
- **رأفت الشيخ :** تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ١٩٩٤ .
- **عبد العزيز الشناوى :** الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها حـ٢ القاهرة ١٩٨٠ .
- **عبد الكريم كريم :** المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الرباط ، ١٩٧٧ .

عبد المنعم الجميعـــي : العثمانيون فى الميزان الإسلامى والعربـــى . القاهرة ، ١٩٩٥ .

- محمد جميل بيهــــم : أ- الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٥٠ .

ب- فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشـــأت وارتقت الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٢٥ .

- محمد خير فـــارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، بيروت ، ١٩٧٩ .

- مرفــت ســـرداح : الجهاد العثمانى لإنقاذ بلاد المغرب العربـــى ١٥١٨-١٥٧٨ رسالة ماجستير غير منشوره كلية البنات - جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠ .

- نيقــولا زيـــادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاســـتقلال القاهرة، ١٩٥٨ .

ثانيا : الأجنبية :

- Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. London 1960 .
- Show (S) : History of the the Ottaman Empire and Modern Turky. London 1977 .

أثر الاتفاق الودى ١٩٠٤م على مستقبل المغرب ومصر السياسى

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة القاهرة فرع الفيوم
وأمين عام الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية بالقاهرة

كان لموقع بلاد المغرب ومصر الاستراتيجى على خريطة السياسة العالمية أكبر الأثر فى زيادة الأطماع الأجنبية على كل من الدولتين، فمراكش تعد مدخل القارة الأفريقية من الشمال الغربى كما أن سواحلها تمتد على البحر المتوسط من ناحية والمحيط الأطلسى من ناحية أخرى، كما أنها تشرف على جبل طارق، ومصر تعد مدخل القارة الأفريقية من الشمال الشرقى وبها قناة السويس شريان الملاحة العالمية ومن هنا وضعتهما القوى الاستعمارية فى سلة واحدة وتسابقت على السيطرة عليهما. فبعد احتلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢م وإشرافها على الطرق الموصلة إلى الهند شعرت فرنسا بتخلخل التوازن الدولى وبدأت فى إثارة العراقيل ضد انجلترا.[1] ونتيجة لعدم تمكنها من إجبار انجلترا على الجلاء عن مصر[2] أو تدويل المسألة المصرية[3] رأت مساومة الحكومة البريطانية على حل وسط وهو أن تتغاضى فرنسا عن احتلالها لمصر فى مقابل أن تترك انجلترا لفرنسا حرية الحركة حتى تتمكن من الاستيلاء على مراكش التى كانت تتطلع إلى احتلالها خاصة بعد احتلالها للجزائر وتونس ولما كانت انجلترا ترى أن من مصلحتها الخاصة التقارب مع الحكومة الفرنسية خاصة بعد ظهور ألمانيا على مسرح الأحداث كقوة عظمى ورغبتها فى التنافس على المستعمرات[4]، واعتبار ذلك من

---

(١) للتفاصيل انظر: عبد العزيز الشناوى: حادث جريدة البوسفور اجبسيان- أزمة سياسية بين انجلترا وفرنسا فى أوائل عهد الاحتلال.
(٢) للتفاصيل انظر: محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه، ص ٧٨.
(٣) محمد نجيب أبو الليل: الاحتلال البريطانى والصحف الفرنسية من ١٨٨٢ حتى ١٩٠٤، ص ١٠.
(٤) على ابراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل، ص ٣٤٦.

المسائل الحيوية بالنسبة لأمنها واقتصادها القومى، وكانت مراكش فى مقدمة المناطق التى تضعها المانيا ضمن اهتماماتها، وتعارض زيادة أى نفوذ انجليزى أو فرنسى فيها.[1]

ونتيجة لذلك حاولت كل من الحكومتين الانجليزية والفرنسية تسوية المسائل المختلف عليها بينهما لمواجهة الخطر الألمانى المشترك فقام الملك "ادوارد السابع" ملك بريطانيا بزيارة باريس فى مايو ١٩٠٣ وتبعها زيارة "المسيولوبيه" رئيس جمهورية فرنسا لبريطانيا[2] فى يوليو من نفس العام واصطحابه لوزير مستعمراته المسيو "دلكاسيه" Delcassé رغبة منه فى بحث كافة المسائل السياسية العالقة بين الدولتين[3] خاصة وأن دلكاسيه كان يميل إلى تسوية علاقات بلاده مع انجلترا كما أنه كان يظهر اهتماما كبيرا ببسط نفوذ فرنسا على مراكش.[4]

وعندما بدأت المفاوضات بين الدولتين فى صيف ١٩٠٣ طرحت مسألة ضرورة التفاهم حول المغرب، وادخال المسألة المصرية فى المباحثات بغرض مقايضتها بالمسألة المغربية. ولما كان "اللورد كرومر" Cromer المعتمد البريطانى فى مصر شديد الرغبة فى استرضاء فرنسا حتى تتوقف عن اثاره العراقيل أمام انجلترا فى مصر ودعوتها المستمرة للجلاء عنها واتخاذها موقف المعارضة من الاحتلال فقد قام بدور كبير فى محادثات الوفاق الودى بين البلدين وخلال ذلك طرح على بساط البحث مسألة تسهيل فرنسا لمهمة انجلترا فى مصر وعدم مطالبتها بالجلاء عنها فى نظير قيام انجلترا بتسهيل مهمة فرنسا فى مراكش.[5]

وقبل الخوض فى تفاصيل الاتفاق يطرح سؤال نفسه وهو إلى أى حد ارتبطت مصالح كل من الدولتين بالسيطرة على مراكش ومصر؟

الواضح من محاضر الجلسة التى عقدت بين وزيرى خارجية الدولتين فى ٧ يوليو ١٩٠٣ مدى أهمية موقع كل من مراكش ومصر بالنسبة لانجلترا وفرنسا ورغبة كل منهما فى عدم التفريط عن أى منهما فعلى سبيل المثال عندما طالب

---

(1) Bernard, A: Le Maroc, Paris 1931, P. 331.
(2) Blunt: My Diaries , Vol 2 . P. 98.
(3) محمد خير فارس: المسألة المغربية ١٩٠٠- ١٩١٢، ص ١٨٣.
(4) صلاح العقاد: المغرب العربى بين التضامن الاسلامى والاستعمار الفرنسى، جـ١، ص ٢٦٢.
(5) محمد صفوت: مرجع سابق، ص ١٠٩.

وزير الخارجية الفرنسي بأن تترك بريطانيا لبلاده حرية العمل في المغرب اعترف في نفس الوقت بأهمية الساحل المغربي المطل على البحر المتوسط وبالذات طنجه والساحل المجاور لها بالنسبة لبريطانيا وبأهمية الاتفاق على تقسيم النفوذ على مياه هذا القسم من الساحل. وعندما حدث لقاء بين السفير الفرنسي ووزير الخارجية البريطانية في لندن في أكتوبر ١٩٠٣ وتناقشا في المسألة المصرية لم تنكر بريطانيا شعور الحكومة الفرنسية بأهمية مصالحها في مصر، وتأكيد المبادئ الخاصة بضمان حرية الملاحة في قناة السويس طبقا لمعاهدة القسطنطينية، وبذورها الحضاري فيها. ونظرا لأن المانيا لم تكن تسمح بسهولة أن تكون المغرب لقمة سائغة في يد الفرنسيين خاصة وأنها كانت تسعى لامتلاك مستعمرات جديدة وتطمح أن تكون مراكش ضمن دائرة نفوذها فقد واجهت انجلترا وفرنسا هذا الخطر الزاحف بالمساومة على عقد الصفقة المغربية المصرية، وبدأت كل منهما تخطو خطواتها السريعة نحو ذلك. وعلى الرغم من أنه كان لدى بريطانيا بعض التحفظات حول سيطرة فرنسا على مراكش خاصة وأن اهتمامها بالساحل المغربي المحيط بطنجه كان يؤرقها فإنها نفت أي رغبة لديها في التدخل في شئون المغرب يضاف إلى ذلك أنها أعربت عن رغبتها في ألا يؤثر أي اتفاق مع فرنسا على مصالحها التجارية أو مشروعاتها الاستعمارية أو على علاقاتها مع أسبانيا حيث رأت ضرورة عدم انفراد فرنسا بالمغرب بل يتم تقسيمه إلى منطقتي نفوذ أسبانية وفرنسية احداها في الشمال والثانية في الجنوب وان تتولى أسبانيا شئون المنطقة الشمالية حتى لا تهدد منها فرنسا جبل طارق الذى تعتبره انجلترا من مناطقها الاستراتيجية.(١)

ونتيجة لذلك عمل الطرفان على الحصول على تنازلات متبادلة، فقبلت فرنسا ربط المسألة المصرية بمسألة استعمارها لمراكش، موضحة أنه إذا كان التفاهم حول مركز انجلترا في مصر من الأمور الأساسية، فإن التفاهم حول المغرب في نظر الفرنسيين يعتبر أساسيا أيضا ولم يعترض الانجليز على ذلك بالرغم من أن مصر كانت بأيديهم، وأن احتلال فرنسا لمراكش سيشكل كسبا جديدا

(١)جلال يحي: المغرب العربي والاستعمار، ص ٥٦- ٥٧

لها خاصة وأن الظروف الدولية كانت تحتم وقف معارضة فرنسا للاحتلال الانجليزى لمصر.[1] واعترافها أن بقاء هذا الاحتلال مرتبط برأى حكومة صاحبة الجلالة، وأنها لم تعارض فى وجود صندوق الدين أو إدارة السكك الحديدية فى مصر أو غير ذلك من الأمور التى تراها بريطانيا فى صالحها.[2]

ونتيجة لذلك توصل الطرفان لإبرام الاتفاق الودى فى ابريل ١٩٠٤ وكانت أهم نصوصه ما يلى:

١- اعلان انجلترا عزمها على عدم تغيير مركز مصر السياسى وتكفلها بالمحافظة على امتيازات فرنسا التقليدية فى مصر وإعلان فرنسا عدم عرقلتها لأعمال انجلترا فى مصر أو مطالبتها بتحديد أجل احتلالها لها، بمعنى الاتفاق على توطيد مركز انجلترا فى مصر وانفرادها بإدارة شئونها المالية وغيرها فى نظير اطلاق يد فرنسا فى مراكش على أن يقع على عاتقها حفظ النظام فيها وتقديم المساعدات التى تتطلبها نواحى الاصلاح المختلفة دون القيام بتغيير الوضع السياسى بها.

٢- يؤكد الاتفاق على مبدأ الباب المفتوح للتجارة فى مراكش ومصر لمدة ثلاثين عاما، وبألا تعوق فرنسا عمليات السفن الانجليزية لنقل التجارة بين موانئ مراكش.

٣- عدم اغفال المصالح الاسبانية فى مراكش، وأن تقوم فرنسا بالتفاهم مع أسبانيا حول هذا الموضوع وإلى جانب هذه النصوص العلنية فقد كانت هناك اتفاقات سرية بين الدولتين بشأن مراكش ومصر[3] ففى المادة الثانية من البنود السرية اتفاقية خاصة بالنظام القضائى والتشريعى والمالى يحق لانجلترا فيها إجراء تغييرات فى مصر دون الرجوع إلى أى جهة أخرى. كما تقوم فرنسا بادخال اصلاحات مماثلة فى مراكش دون أن تعترض انجلترا على لذلك.

---

(١) صلاح العقاد: المغرب العربى، جـ١، ص ٢٧٢- ٢٧٤.
(٢) محمد خير فارس: المسألة المغربية، ص ١٩١.
(3) للتفاصيل حول هذه البنود أنظر Parliamentary Papers (1911) CIII (CD 5969)

وفى المادة الثالثة من البنود السرية اتفقت الحكومتان عن دخول بعض المناطق المجاورة لمنطقة "سبته " و "مليلة" ضمن دائرة النفوذ الأسبانى.

وهكذا لم يعترف هذا الاتفاق بمصالح فرنسا وحدها فى المغرب وإنما بمصالح أسبانيا أيضا فى محاولة لتمزيق وحده المغرب، ولقد ترتب على هذا الاتفاق نتائج خطيرة فيما يتعلق بمركز مراكش ومصر فقد دخلت المغرب كما دخلت مصر فى دائرة التقسيمة الاستعمارية فى أفريقيا وأخذ الانجليز يوطدون مركزهم فى مصر لدرجة أن أصبحت المسألة المصرية - كما ذكر كرومر- ذات طابع داخلى[1]، كما أخذ الفرنسيون فى توطيد مركزهم فى المغرب، مما حقق لفرنسا وانجلترا مكسبا مهما وهو تصفية النزاع فيما بينهما وزيادة أواصر التحالف بين كل منهما مما عزز مركزهما امام المانيا المتطلعة للمنافسة البحرية والتجارية،[2] وحرر السياسة الفرنسية من عقدة الخوف التى لازمتها منذ الحرب السبعينية مع المانيا كما أن انجلترا اطمأنت بهذا الاتفاق على مركزها فى مصر، وعلى مستقبل مضيق جبل طارق، وبدأت فى فتح صفحة جديدة من الصداقة والتآلف على حساب شعبى مراكش ومصر، مما كان له آثاره السلبية على الحركة الوطنية فى كل من البلدين ورغبة من فرنسا فى عدم معارضة ايطاليا لنفوذها فى المغرب ووقوفها بجانبها ضد المانيا فقد وعدتها بعدم معارضة غزوها ليبيا وهكذا شهد العالم العربى فى ذلك الوقت هجوما مستمرا على بلدانه الواحدة بعد الأخرى من الدول الاستعمارية خاصة انجلترا وفرنسا.

وفى أعقاب اتمام الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا تفاوض وزير خارجية فرنسا مع الحكومة الأسبانية بشأن تقسيم مراكش بينهما فاتفق على ان تحصل أسبانيا على منطقة الريف التى تشمل الشريط الساحلى من مراكش المقابل للساحل الأسبانى عند جبل طارق بينما تحصل فرنسا على ما تبقى من مراكش.

وقد تركزت خطة فرنسا فى الاستيلاء على مراكش فى أن تقوم الحكومة الفرنسية ممثلة فى وزير خارجيتها بتقديم العديد من المقترحات إلى سلطان مراكش

---

(1) Cromer: Report on the Finances, Administration, and condition of Egypt and Sudan in 1904, P. 4.

(2) خير فارس: مرجع سابق، ص ٢٣٢.

بشأن الاصلاحات الداخلية فى بلاده حتى إذا رفضها يكون فى ذلك ذريعة لتدخل فرنسا عسكريا لفرضها بالقوة كل ذلك أزعج سلطان مراكش الذى لم يجد بدا من الاستنجاد بألمانيا بصفتها الدولة الأوربية الوحيدة التى أبدت معارضتها للسياسة الفرنسية فى بلاده[1]، كما أزعج الألمان، وجعلهم يقومون باتصالات مباشرة مع حاكم مراكش يعربون فيها عن عدم ارتياحهم لما جاء فى الاتفاق الودى ويحرضونه على رفض مقترحات الحكومة الفرنسية تجاه بلاده وأعقب ذلك قيام الامبراطور الألمانى وليم الثانى William II بزيارة لميناء طنجة فى ٢٨ مارس ١٩٠٥ فى محاولة منه لإفساد ما حدث من اتفاق بين الانجليز والفرنسيين بشأن مراكش وتحويل المسألة المراكشية إلى مسألة دولية فالقى خطابا دراميا أوضح فيه تأييد ألمانيا لاستقلال مراكش، كما أنها تعتبر سلطان مراكش كامل السيادة والاستقلال[2]، ودعا الامبراطور الألمانى إلى تمسك مراكش بالمحافظة على استقلالها وطالب سلطانها باتباع سياسة الباب المفتوح لجميع الدول على السواء، وأن يتم فتح بلاده للمنافسة التجارية السلمية الحرة. بحيث لا يكون لدولة فيها امتياز على الأخرى، وأن تسير مراكش مع جميع الدول على مبدأ المساواة المطلقة فلا احتكار ولا استعمار لأحد. خاصة وأن المانيا مصممة على حماية مصالحها فى هذه البلاد. [3]

واقترح الإمبراطور الألمانى عقد مؤتمر دولى لبحث هذه المسألة. وعلى الرغم من أن هذه الزيارة عززت موقف السلطان وشجعته على رفض المشروعات الفرنسية فقد أدت إلى استفزاز فرنسا استفزاز شديداً وانزعاج الأوساط الاستعمارية داخل فرنسا وخارجها فقد رفض وزير خارجيتها هذا الأقتراح، وتأزم الموقف الدولى خاصة بعد أن أرسلت الحكومة البريطانية برسالة إلى الحكومة الألمانية تنذرها باشتراك انجلترا إلى جانب فرنسا فى حالة وقوع حرب بشأن المسألة المراكشية. [4]

---

(1) صلاح العقاد: المغرب العربى، ص ٢٧٦.
(2) حسن صبحى: التنافس الدولى الاستعمارى الأوربى فى المغرب، ص ١٧٣.
(3) العقاد: المغرب العربى، ص ٢٧٩.
(4) محمد خير فارس: المغرب العربى، ص ٢٥٦.

وخشية من تطورات الموقف الذى بدأ ينذر بظهور شبح حرب عالمية بين دول أوربا بشأن المسألة المراكشية اتفق على عقد مؤتمر دولى فى أوئل عام ١٩٠٦ فى بلدة الجزيرة الخضراء[١] القريبة من جبل طارق للنظر فى امكانية حل المشكلة المغربية والنظر فى الاصلاحات التى تدعيها فرنسا فى المغرب.وبالرغم من اعتراض وزير خارجية فرنسا على عقد هذا المؤتمر فى أول الأمر فإن موافقة الدول على عقد ذلك المؤتمر حقق لألمانيا نصرا دبلوماسيا كبيرا تمكنت به فى التغلب على المعارضة الفرنسية وقد اشترك فى هذا المؤتمر اثنتا عشرة دولة بالإضافة إلى مراكش صاحبه الشأن، وهذه الدول هى المانيا، والنمسا، وبلجيكا، وأسبانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، وايطاليا، وهولندا، والبرتغال، وروسيا، والسويد وقد خرج هذا المؤتمر بنتائج كانت فى معظمها فى غير صالح المانيا، ففى حين وقفت الولايات المتحدة والبرتغال وهولنده على الحياد، وقفت معظم الدول الأخرى المشاركة فى المؤتمر إلى جانب فرنسا وتركت المانيا وحدها، ولم يقف بجانبها سوى النمسا وبذلك تمكنت فرنسا من زيادة نفوذها فى مراكش والحصول على تكليف من الحكومات الأوربية بإصلاح شئون الأمن فيها عن طريق إنشاء قوة بوليسية من فرنسا وأسبانيا للمحافظة على الأمن والنظام بها ، وان تدير كل منهما شأن الجمارك هناك وتعمل ما تراه مناسبا من الاصلاحات فى الإدارة والشئون الصحية كما تقرر تأسيس بنك تشرف عليه فرنسا وأسبانيا وانجلترا والمانيا، ومع أن المؤتمر أصر على ضرورة الاحتفاظ بالأوضاع فى المغرب، كما هى فقد كانت قراراته بمثابة توجيه ضربة ثانية لاستقلال مراكش بعد الضربة الأولى المتمثلة فى الاتفاق الودى.

ونتيجة لذلك أخذت فرنسا تبذل أقصى جهودها للسيطرة على مراكش، فى حين شعرت المانيا بعزلتها الدولية، وخروج دولتى الوفاق (انجلترا وفرنسا) من المؤتمر أقوى مما كانتا عليه، ثم انضمام بريطانيا إلى دولتى التحالف الثنائى روسيا وفرنسا مما أدى إلى انقسام أوربا إلى كتلتين تتعارض مصالح كل منهما مع

---

(١)الجزيرة أو Algeciras بالاسبانية قرية سياحية قرب ساحل اسبانيا الجنوبى وقد تقرر عقد المؤتمر بها بناء على طلب فرنسا، وكانت ألمانيا تريد عقده فى طنجة. العقاد: المغرب العربى، جـ١، ص ٢٨٠.

الأخرى، فقد تكونت كتلة من بريطانيا وفرنسا وروسيا، وتكونت الأخرى من المانيا والنمسا وايطاليا، وبدأت كل من الكتلتين تتربص بالأخرى، وتتهيأ للجولة القادمة.

وعلى الرغم من أن قرارات مؤتمر الجزيرة كانت تعد بمثابة خطوة حاسمة فى تاريخ المغرب إذ أنها فتحت الطريق أمام فرنسا للتوغل والسيطرة على البلاد[1]، فقد ظل فتيل الأزمة المغربية بين الدول الأوربية مشتعلا وجاهزا للإنفجار فى أية لحظة خاصة وأن المانيا لم تكن راضية عن قرارات هذا المؤتمر. وإن كان قد أوجد هدنة بينها وبين فرنسا.وقد استغلت المانيا القلاقل التى حدثت فى مراكش، واستنجاد السلطان مولاى عبد الحفيظ بالفرنسيين للقضاء على الثورة فى بلاده، وانتهاز فرنسا لهذه الفرصة وإرسال قواتها البحرية إلى ميناء الدار البيضاء وقيامها بحملة حربية إلى مراكش فى ربيع عام ١٩١١ بحجة الاستجابة لرغبات السلطان، وحماية الرعايا الفرنسيين هناك، فأثارت الموقف مرة أخرى بإرسال الطراد الحربى "بانثر Panther" فى مظاهرة بحرية إلى سواحل مراكش عند مياه أغادير فى أول يوليو ١٩١١ للاحتجاج على إرسال فرنسا لحملتها الحربية على مراكش وبحجة حماية مصالحها التجارية هناك، وقد أحدث ذلك ردود فعل عنيفة فى باريس ولندن وروما، وبدأت نذر اشتعال حرب أوربية بسبب المسألة المراكشية لولا تدارك الأمر، خاصة وأنه يمكن تجنب الحرب بسبب مسألة يمكن التفاهم بشأنها.[2]

ولتهدئة الموقف حدثت العديد من المساومات بين الطرفين خاصة وأن المانيا أدركت من جانبها أن الزمن يعمل لصالح فرنسا فى المغرب، وإنها لا تستطيع منعها من وضع يدها على هذا البلد آجلا أو عاجلا ونتيجة لذلك تراجع القيصر الألمانى عن موقفه فوقع مع فرنسا اتفاقية فى ٤ نوفمبر ١٩١١ حصل بمقتضاها على جزء من الكونغو الفرنسية كتعويض لها فى مقابل الإعتراف بمكانة فرنسا المتميزة فى مراكش على أن تتبع فرنسا سياسة الباب المفتوح بها، وبذلك انتهت الأزمة المراكشية الثانية التى كادت تؤدى بالعالم إلى حرب عالمية إلى اعلان فرنسا حمايتها على مراكش فى ٣٠ مارس ١٩١٢ وتصفية الحركة الوطنية هناك بعد أن كان المغرب يأمل الخير أو بعض الخير من التنافس الدولى حوله،

---

(1) جلال يحى: المغرب العربى والاستعمار، ص ٥٩.
(2) العقاد: المغرب العربى، ص ٢٩٨.

ولكنه في الواقع كان الجائزة التي تتنافس حولها الأطراف المتنازعة، ولم يكن يملك القوة التي تساعده على الافادة من هذه المنافسات.[١]

وفي أعقاب ذلك قامت فرنسا بتسوية التفاصيل التي تتوجب الاتفاق الودي ١٩٠٤ بشأن أسبانيا فعقد بين أسبانيا وفرنسا معاهدة جديدة بخصوص مراكش في نوفمبر ١٩١٢ من أجل تحديد المنطقة الاسبانية التي أطلق عليها خط منطقة الريف فأصبح يتولاها حاكم يعينه سلطان مراكش على أن يخضع لتوجيهات المندوب الاسباني.[٢]

وعلى الرغم من كل ذلك فإن المراكشيين لم يتوقفوا عن النضال من أجل استقلال بلادهم وقد لعبت شخصية الأمير عبد الكريم الخطابي الدور الرئيسي في حركة المقاومة.

د. عبد المنعم الجميعي

(١) [illegible] فارس: المسألة المغربية، ص [illegible].
(٢) زاهر رياض: شمال أفريقية في العصر الحديث، ص ٢١٩.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- Parliamentary Papers (1911).
- Cromer: Report on the Finances, administration. and condition of Egypt and Sudan in 1904, April , 1905.

ثانيا: المراجع العربية:

- جلال يحى: المغرب العربى والاستعمار، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
- حسن صبحى: التنافس الاستعمارى الأوربى فى المغرب ١٨٨٤- ١٩٠٤، الاسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٥.
- زاهر رياض: شمال افريقية فى العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٧.
- صلاح العقاد: المغرب العربى بين التضامن الإسلامى والاستعمار الفرنسى، جـ١، القاهرة، الانجلو المصرية، ١٩٥٧.
- عبد العزيز الشناوى: حادث جريدة البوسفور اجبسيان أزمة سياسية فى أوائل عهد الاحتلال، القاهرة، ١٩٦٢.
- على ابراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل، القاهرة، ١٩٥٨.
- محمد خير فارس:المسألة المغربية١٩٠٠- ١٩١٢،بيروت دار الشروق، ١٩٧٩.
- محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الانجليزى لمصر، وموقف الدول الكبرى إزاءه، القاهرة، ١٩٥٢.
- محمد نجيب أبو الليل: الاحتلال البريطانى والصحف الفرنسية من ١٨٨٢ حتى ١٩٠٤ ، القاهرة، د.ت.

المراجع الأجنبية:

- Bernard, A; Le Maroc , Paris, 1931.
- Blunt: My Diaries , Being A Personal Narrative of Events 1888- 1914, London, 1919.

ملحق رقم ٣ (١)

القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للامم المتحدة

بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ أثناء دور اجتماعها العادى الرابع

المنعقد فى فلشنج ميدوز (نيويورك)

بشأن مصير المستعمرات الإيطالية السابقة

طبقاً للفقرة الثالثة من الملحق ١١ من معاهدة الصلح مع إيطاليا عام ١٩٤٧ التى وافقت الدول المختصة فيها على قبول توصيات الجمعية العمومية بخصوص التصرف فى المستعمرات الإيطالية السابقة واتخاذ التدابير اللائقة لسريان مفعولها .

وبعد الاطلاع على ما جاء فى تقرير لجنة التحقيق الرباعية ، وبعد سماع أقوال ممثلى الهيئات التى تمثل الأقسام الهامة للآراء فى الأقاليم المقصودة ، وبعد الأخذ بعين الاعتبار برغبات ورفاهية سكان الأقاليم وصالح الأمن والسلام ووجهات نظر الحكومات المختصة والنصوص الخاصة بهذا الموضوع فى الميثاق ، توصى الجمعية العمومية لهيئة الأمم بما يلى :

فيما يختص بليبيا :

١ — ان ليبيا التى تشمل برقة وطرابلس وفزان ستكون دولة مستقلة وذات سيادة .

٢ – يسرى مفعول هذا الاستقلال فى أقرب فرصة ممكنة ، وعلى أى حال لا يتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ .

٣ – أن يقرر دستور ليبيا وبما فيه نوع الحكومة بواسطة ممثلى السكان فى برقة وطرابلس وفزان الذين يجتمعون ويتشاورون على شكل جمعية وطنية .

٤ – لأجل مساعدة أهالى ليبيا فى وضع الدستور وتأسيس حكومة مستقلة سيكون فى ليبيا مندوب من قبل هيئة الأمم تعينه الجمعية العمومية ، وله مجلس يساعده ويرشده .

٥ – يقدم مندوب هيئة الأمم المتحدة بالتشاور مع المجلس تقريراً سنوياً وأى تقارير أخرى يرى أهميتها إلى السكرتير العام ، ويضاف إلى هذه التقارير أية مذكرة أو وثيقة يرى مندوب هيئة الأمم أو عضو من أعضاء المجلس رفعها إلى هيئة الأمم .

٦ – سيكوّن المجلس من عشرة أعضاء ، وهم :

(ا) ممثل واحد تعينه حكومة كل من البلاد الآتية :

مصر – فرنسا – إيطاليا – باكستان – المملكة المتحدة – الولايات المتحدة الأمريكية .

(ب) ممثل واحد من كل من الأقسام الثلاثة فى ليبيا وممثل واحد عن الأقليات فى ليبيا .

٧ – يعين مندوب هيئة الأمم المذكورين فى الفقرة السادسة (ب) بعد التشاور مع السلطات الإدارية وممثلى الحكومات المذكورة فى الفقرة

السادسة (ا) والشخصيات البارزة وممثلى الأحزاب السياسية والهيئات فى المناطق المختصة .

٨ — يستشير المندوب أثناء تأدية وظائفه أعضاء مجلسه ويسترشد بهم وله أن يستنير بآراء مختلف الأعضاء بالنسبة للمناطق أو الموضوعات المختلفة .

٩ — لمندوب هيئة الأمم المتحدة أن يقدم إلى الجمعية العمومية والمجلس الاقتصادى والاجتماعى وللسكرتير العام اقتراحات عن التدابير التى ترى هيئة الأمم أن تتخذها أثناء فترة الانتقال بخصوص المسائل الاقتصادية والاجتماعية فى ليبيا .

١٠ — تقوم الدول القائمة بالإدارة بالتعاون مع المندوب بما يلى :

(ا) تشرع حالا فى اتخاذ الخطوات اللازمة لنقل الحكم إلى حكومة دستورية مستقلة .

(ب) أن تقوم بادارة البلاد بغرض المساعدة فى إقامة وحدة ليبيا واستقلالها والتعاون فى تكوين الإدارات الحكومية وتنسيق جهودها لهذه الغاية .

(ح) تقديم تقرير سنوى إلى الجمعية العمومية عن الخطوات التى اتخذت بشأن تنفيذ هذه التوصيات .

١١ — تقبل ليبيا بمجرد تكوينها كدولة مستقلة عضوا فى هيئة الأمم المتحدة طبقاً للمادة الرابعة من الميثاق .

ملحق رقم (٢)

خطبة مصالى الحاج فى المؤتمر الاسلامى الجزائرى

أغسطس ١٩٣٦

فيما يلى أغلب وأهم الفقرات الواردة فى خطبة السيد مصالى الحاج رئيس نجم شمال أفريقية والمدير السياسى لجريدة الأمة ، وهى الخطبة التى ألقاها فى الملعب البلدى بالعاصمة غداة عودة وفد المؤتمر الاسلامى من باريس واجتماع الناس للاستماع إلى تقـــرير الوفد بتاريخ ٢ أغسطس ١٩٣٦ . والملاحظ أن كل الخطاب كان بالفرنسية ماعدا الفقرة الافتتاحية .

سادتى ، إخوانى ،

باسم نجم شمال أفريقية أحييكم تحية الأخوة وأحمل إليكم تضامن ٢٠٠,٠٠٠ شمال إفريقى يقيمون فى فرنسا . واحتراما للغتنا الوطنية ، اللغة العربية ، التى كلنا نعتز بها ونعجب بها ، وأيضا تقديراً لنبل هذا الشعب الجزائرى الشجاع الكريم ، فقد أردت أن أعبر أمامكم ، بعد نفى دام اثنى عشر سنة ، بلغتى الأم ...

إخوانى :

باسم نجم شمال أفريقية قدمت للمشاركة فى هـذا الاجتماع الكبير ، لكى أشرك منظمتنا فى هذه المظاهرة الضخمـة . وأن نجم شمال أفريقيـة مشهور لديكم لذلك فإننى فى غنى عن الحديث إليكم عن نشاطه وكفاحه الذى قاده منذ عشر سنوات دفاعا عن مصالح الشعب الجزائرى . ومع ذلك فإنى سأغتنم هذه الفرصة التى اجتمعتم فيها بكثرة ، بل بالآلاف ، لكى أذكر

لكم بعض التفاصيل عن الدور الذى لعبه ، ومن الواجب على أن أقول بأن المعركة كانت صعبة ومريرة .

وتحت حكومات من أكثر الحكومات رجعية ، وفى الوقت الذى كان فيه كل الناس فى بلادنا صامتين ، وتحت حكم استثنائى ، كان نجم شمال أفريقية هو الوحيد الذى تجرأ على رفع الصوت للاحتجاج ضد كل سوء استعمال للسلطة ، والظلم والإجحاف ، وليقول أمام العالم أن الجزائر لم تمت، وأنها بإرادة أبنائها تريد أن تعيش حرة وسعيدة . وهذه الجرأة هى التى جرت على مناضلى النجم المشاق التى لا مثيل لها كما جرت عليهم أكثر أنواع الحقد عنصرية ...

لقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن لمدة سنوات ، مع التغريم بآلاف الفرنكات . وقد عرفنا النفى والتهجير ، ولم يسلم أحد خلال هذا الكفاح .. وحتى اليوم ، وتحت حكومة الجبهة الشعبية ما زلنا نتعرض لسلسلة من الإجراءات الخاصة والقوانين الاستثنائية ، فى قلب باريس . وهى إجراءات وقوانين لا تستعمل إلا ضدنا نحن فقط ...

ومن أجل ذلك اتهمونا أكثر من مرة بكوننا شيوعيين ، ووهابيين ، وعملاء ألمانيا ، وعملاء موسكو ، وغيرهما من البلدان . ونحن نقول لكم بأننا لم نكن عملاء لا لهؤلاء ولا لأولئك ، لأننا كنا وما زلنا وسنظل دائماً عملاء وخدمة للشعب الجزائرى . لقد عزمنا على تحمل كل التضحيات من أجل أن تكون الجزائر حرة ومزدهرة ومتعلمة .

ونخبركم بأننا أيضاً كنا فى وزارة الداخلية وأننا قدمنا إلى السيد راوول أوبو نائب كاتب الدولة ، قائمتين بالمطالب إحداهما تخص الجزائريين المقيمين فى فرنسا والأخرى تخص الشعب الجزائرى . ونخبركم أيضاً بأننا

علمنا وسررنا بانعقاد المؤتمر (الإسلامى) الذى انعقد فى بداية جوان بالعاصمة الجزائر وقد أيدناه رغم أننا لاحظنا عليه الضعف والتسرع.

ومنذ وصول الوفد الجزائرى (إلى باريس) المنبثق عن المؤتمر سارعنا إلى تحيته والاتصال به وتبادل الآراء معه حول مشكل بلادنا. ورغم موافقتنا وتأييدنا بل وتهنئتنا لمنظمى هذا المؤتمر، الذى سيكون نقطة تحول فى تاريخ الجزائر، فإننا نقول لكم بصراحة بأنه يجب علينا اليوم أن نقدم لكم توضيحات نراها ضرورية. حقاً إننا نوافق على المطالب العاجلة التى هى فى الواقع متواضعة وشرعية، والتى نص عليها ميثاق المطالب الذى قدم إلى حكومة الجبهة الشعبية، وإننا سنؤيدها بكل قوانا حتى نراها منجزة ...

وهنا التزم باسم منظمتى وأمام الشيخ الجليل ابن باديس أن أعمل كل مافى وسعى لتأييد هذه المطالب ولخدمة القضية النبيلة التى ندافع عنها جميعاً. لكننا نقول صراحة وبشكل لا يقبل التراجع بأننا نتبرأ من ميثاق المطالب بخصوص إلحاق بلادنا بفرنسا وبخصوص التمثيل البرلمانى.

والواقع أن بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إدارياً وهى تابعة لسلطتها المركزية، ولكن هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع، تلاه احتلال عسكرى يقوم اليوم على الفيلق التاسع عشر من الجيش. لكن الشعب لم يوافق عليه أبداً. أما الإلحاق الذى نص عليه ميثاق المطالب فهو مطلوب إرادياً باسم مؤتمر يقولون عنه أنه يمثل إجماع الشعب الجزائرى. ومن ثمة فهناك فرق أساسى بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا وإلحاق إرادى مقبول عن طيب خاطر فى المؤتمر الذى انعقد فى السابع من جوان بالجزائر العاصمة. (وهو المؤتمر الذى ... فى ثلاث ساعات فقط). إننا أيضاً أبناء الشعب الجزائرى ولن نقبل أبداً أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها. فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف، أن نراهن على المستقبل الذى هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائرى.